

بلينخانوف

فلسفه الاتار - بخ
المفهوم المادي للنائزخ

بلixinوف

فلسفه التاریخ

المفهوم المادي للتاریخ

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة

المقدمة

كان بليخانوف اول من نشر الماركسية في روسيا . فقد كتب في نهاية القرن التاسع عشر سلسلة من الابحاث الرامية الى نشر الافكار الماركسية ، والقضاء على تقوذ الشعبيين .

في كتاب «فلسفة التاريخ» ، بين بليخانوف ان الفلسفة الماركسية تتبع بصورة طبيعية من التطور السابق للعلم والفلسفة ، وبعد القاء نظرة على المفهوم الالاهوي ، يخلل بليخانوف افكار فلاسفة القرن الثامن عشر ، ومؤرخي عبد «عودة الملكية» ، والثاليين الالمان . ويوضح تناقضات هذه المفاهيم وحدودها التاريخية الطبيعية ، مع تباهيه جوانبها التقدمية . ويظهر ان ماركس وحده استند فلسفة التاريخ على اساس علمي صحيح . فقد انطلق ماركس من تفحص انتقادى لتراث الماضي النظري ، وانهى هذان التراث ، وصاغ مذهبآ ثورياً يمكن بأمانة قوانين تطور المجتمع ، ويد البروليتاريا بسلاح نظري فعال . وهذا الكراس هو وبالتالي صورة موجزة عن مؤلف بليخانوف المسمى «المفهوم الوضعي والتاريخ» .

وفي كتاب «المفهوم المادي للتاريخ» ، يوضح بليخانوف ، من خلال تحليله لأحد مؤلفات الكاتب الايطالي انطونيو لا بيريرا ، بعض القضايا الاساسية بالنسبة الى الماديه التاريخية : تهد نظرية العوامل ، طبيعة القووه ودورها ، قد فكره المرق ، التفاعل بين مظاهر الحياة الاجتماعية ، قوى الانتاج وعلاقاته

الاتصال ، دور العلاقات الاقتصادية والصالح الاقتصادية . ولا يزال هذا التحليل مثالاً كلاسيكيًا رائعاً عن تطبيق المنهج الماركسي - اليني طبقاً عليه بخلافاً . والمعروف ابن بليني أنوف قد ارتكب بعض الأخطاء وتطور باتجاه الانتهازية . ولكن هذا التطور السياسي يجب أن لا ينسينا المؤلفات النظرية الفذة التي كتبها في الوقت الذي كان فيه ماركسياً منسجماً .

وقد أشار لينين إلى ذلك في عام ١٩٢١ ، اذ قال : « .. لا يمكن للإنسان ان يصبح شيوعياً حقيقياً واعياً ، ما لم يدرس كل ما كتبه بليني أنوف في الفلسفة ، لانه خير ما يوجد في بحث نتاج الفكر الماركسي في جميع البلدان .

فلاسفة التاريخ

فلسفة التاريخ

عندما يستجمع المؤرخ ماضي النوع البشري وحاضره (واقتصر المؤرخ واحداً من أولئك الذين لم يحرموا موهبة التعميم) ، يرى مشهدأ عظياً ورائعاً يجري أمامه . فأنتم تعلمون بلا ريب أن العلم الحديث يفترض وجود الإنسان على سطح الأرض منذ الدور الجيولوجي الرابع اي على الأقل منذ ٢٠٠٠٠ سنة . ولكن اذا صرفا النظر عن هذه المسابات الافتراضية ، وإذا قبلنا كما كان الناس يعتقدون في السابق ان الإنسان قد ظهر على سطح الأرض قبل الميلاد بحوالي ٤٠٠٠ سنة ، يكون لدينا زهاء ٢٠٠ جيل ظهروا الواحد تلو الآخر واختفوا كما تختفي الاوراق في الثابة عند التحريف . ان كلام من هذه الاجيال ، بل كل فرد من كل جيل ، قد سعى لتحقيق اغراضه الشخصية ! فكل فرد ناضل في سبيل وجوده الشخصي ووجود ذويه ، ومع ذلك حدثت حركة اجتماعية ، حدث ما نسميه تاريخ النوع البشري . وإذا اعدنا الى ذا كرتنا حياة اجدادنا ، اذا تصورنا مثلاً حياة رجل ذلك العرق الذي كان يقطن بمساكن البحيرات (١) ، وإذا قارنا تلك الحياة بحياة سكان سويسرا الحالين ، لاحظ فرقاً هاماً . فقد ازدادت المسافة التي تفصل الإنسان عن اسلافه الشبيهين بالقرد شبهأ كبيراً او صغيراً . فمن الطبيعي ان يتسائل المرء عن أسباب هذه الحركة وهذا التقدم .

١ - مساكن البحيرات : habitations lacustres ساكن كان يبنيها انسان

ما قبل التاريخ في البحيرات على اعدة خاصة ، وما زالت بقاياها تشاهد في سويسرا

هذه المسألة الكبرى ، مسألة اسباب تقدم النوع البشري وحركته التاريخية ، هي التي تشكل موضوع ما كان يسمى سابقاً بفلسفة التاريخ ومن الافضل ان يسمى ، على ما يبدوا لي ، مفهوم التاريخ اي التاريخ باعتباره علماً ، التاريخ الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الامور ، بل يريد معرفة لماذا حدثت الامور على نحو معين وليس على نحو آخر .

ولفلسفة التاريخ ، كشكل شيء آخر ، تاريخها ؛ اعني أن الناس الذين كانوا يهتمون في عبود مختلفة بمسألة سبب الحركة التاريخية ، قد أجابوا بأشكال مختلفة على هذا السؤال الكبير . لقد كان لكل عهد فلسفة خاصة في التاريخ . ولعلكم ستعترضون علي بأنه كثيراً ما وجد ، في عهد تاريخي واحد ، عدة مدارس في فلسفة التاريخ ، لا فلسفة واحدة فقط . اني اواقف على ذلك ، ولكي ارجوكم ان تتمبروا ان المدارس الفلسفية المختلفة الخاصة بهذه تاريخي معين تشتراك دائماً شيئاً يتيح لنا بأن ننظر اليها كاجناس مختلفة من نوع واحد . مع العلم بأن هناك مدارس متبقية من المهد الثورة . ولتبسيط المسألة يمكننا اذن القول ان كل دور تاريخي له فلسفة خاصة في التاريخ وسندرس بعضها منها ، بدأئذين بالفلسفة اللاهوتية او المفهوم اللاهوتي للتاريخ .

المفهوم الراهن في التاريخ

ما هي الفلسفة اللاموئية او المفهوم اللاموئي في التاريخ ؟ هذا المفهوم هو أكثر المفاهيم بدائية ، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجحود الاولى التي بذلك الفكير الانساني لاستشفاف العالم الخارجي . فان ابسط مفهوم يستطيع الانسان ان يكون له عن الطبيعة ، هو ان يرى فيها حوادث ناتجة عن فعل اراداته أو عادة ارادات شبيهة بارادته ، وليس ظواهر مترابطة تخضع لقوانين ثابتة . ويقول الفيلسوف الفرنسي غويو Guyau ، في احد كتبه ، ان طفلاً كان يحضوره يصف القمر بقوله «ملعون» لانه لم يكن يود الظهور ؛ فهذا الطفل كان يعتبر القمر كائناً حياً ، والانسان البدائي يحيي ، على غرار هذا الطفل ، الطبيعة بمجملها . ان التفكير الاحياني^(١) هو المرحلة الاولى في تطور التفكير الديني ، والخطوة الاولى للعلم هي ايماد التفسير الاحياني لحوادث الطبيعة وفهمها كظواهر خاصة لقوانين . فيما يعتقد الطفل ان القمر لا يظهر لأنه «ملعون» ، يشرح لنا علم الفلك بجمل الشروط الطبيعية التي تسمح لتنا أو نعمتنا ، في وقت معين ، من روئية كوكب او آخر . والحال ، بينما كان قدم العلم في ميدان تفسير الطبيعة سريماً نسبياً ، فان

١ - التفكير الاحياني : animisme تفكير يقوم على بث الروح والحياة في الاشياء ، الخامدة .

علم المجتمع الانساني وتاريخه لم يتقدم الا ببطء شديد . فقد كان التفسير الاحياني للحوادث التاريخية مقبولاً في عهود اصبح فيها التفسير الاحياني لظواهر الطبيعة موضع سخرية .

وكان من المباح تماماً في المجتمعات راقية جداً تفسير الحركة التاريخية على أنها تحجل لارادة الله أو عدة آلهة . ان هذا التفسير للتاريخ بعدل الله هو ما نسبيه المفهوم الالاهي للتاريخ .

ولايصال هذا المفهوم ، سأحدد هنا معلم الفلسفة التاريخية لدى رجلين شهيرين : القديس اوغسطين (١) الى الحوادث التاريخية على أنها تخضع للعناية الالاهية ، وأكثر من ذلك ، فهو مقتنع بأنه لا يمكن النظر اليها على نحو آخر .

يقول اوغسطين : « انظروا الى هذا الاله الحقيقي الجبار ، الواحد القهار ، مبدع جميع الارواح والاجسام وبارتها . الذي جعل الانسان حيواناً عاقلًا من ركياباً من جسد وروح ، هذا الاله الذي هو مبدأ كل قاعدة وكل جمال وكل نظام ، وكل شيء يهب كل شيء المد والوزن والقياس ، والذي يشقق منه كل انتاج طبيعي ، منها كان نوعه وعنه ، اني اسألكم : هل يعقل ان هذا الاله قد تحمل أن تبقى امبراطوريات الارض وسيطرتها وعبوديتها غريبة عن شرائع عنايته (مدينة الله) .

١ - القديس اوغسطين : St . Augustin (٤٣٠ - ٢٥٤ م) هو اسقف هيبون (في افريقيا الشمالية) ، هو من اشهر آباء الكنيسة ، عرض افكاره في كتابه « مدينة الله » .

والقديس اوغسطين لا يترك وجة النظر العامة هذه في اي من شروحه التاريخية . فاذا اراد تفسير عظمة الرومان ، يروي لنا بكثير من التفاصيل انها كانت مدخل في نظرات الاه :

« بعد ان تألقت ممالك الشرق على الارض خلال سلسلة طوبلة من السنين اراد الله ان تصبح الامبراطورية الغربية ، التي كانت آخر الامبراطوريات في الترتيب الزمني ، أولاهما من حيث العظمة والاتساع ، ولما كان ينبغي استخدام هذه الامبراطورية لازالت العقاب بعدد كبير من الاعم ، فقد سلمها لرجال شغوفين بالاطراء والتجيد ، لرجال كانوا يرون مجدهم في مجده الوطن و كانوا مستعدين دائمًا للتضحيّة بأنفسهم في سبيل اتقاده ، متغلبين بذلك على جهم للهال وعلى سائر الرذائل الأخرى بهذه الرذيلة الوحيدة الا وهي حب المجد . اذ ان حب المجد - علينا ان لا نخفي ذلك - هو رذيلة الخ ... » .

و اذا كانت القضية تفسير عظمة (قدّطنطين) اول امبراطور مسيحي ، فالارادة الالمية كذبة باز الله كل صعوبة . « ان الله ، اذا اراد منشئ عباده من الاقناع باستحالة الحصول على ممالك الارض واجادها بدون مساعدة الشياطين فقد اراد ان يبيّن نعمته على الامبراطور قسطنططين ، - الذي لم يلجأ الى الامامة الكاذبة ، ولم يعبد سوى الله الحقيقي - وان يصرمه بمخارات فوق ما كان يسمّى اي امبراطور آخر على تمنها » .
وأخيراً ، اذا كانت القضية معروفة سبب دوام حرب اكثر من حرب

آخرى ، فأوغسطين يقول لنا إن ذلك هي مشيئة الله :

«وكما أنه يتوقف على الله أن ينزل بالبشر العذاب أو يكشف عنهم الشر ، وفقاً لاحكام عداته ورحمته ، كذلك فهو الذي يضبط مواقيت المروب والذي يختصرها او يدها حسب مشيئته » .

هكذا ترون ان اوغسطين يبقى على النوام ايماناً لمبدئه الأساسي ولكن هنا يؤسف له انه لا يكفي للمرء أن يبقى أميناً لمبدأ مدين لكي يجد التفسير الصحيح للظواهر . اذ يتبين على فيلسوف التاريخ ، قبل كل شيء ، ان يدرس بعناية سائر الواقع التي سقطت وراقت الظاهرة التي يسعى لتفسيرها . فالبادئ الأساسي لا يمكنه ولا يجوز له ان يكون الا انطليط الموجه في تحليل الواقع التاريخي . وال الحال ان نظرية اوغسطين لا تكفي ، من كلتا الناحيتين المذكورتين : فمن حيث كونها طريقة لتحليل الواقع التاريخي ، هي عدمة الجدوى . واما من جهة مبدئها الاساسى ، فارجوكم ان لا لاحظوا الامر الثالث : يتحدث اوغسطين عما يسميه شرائع العناية الالهية بقىاعة واسباب بجعلنا نتساءل ، لدى قراءته ، عمما إذا استودعه رب اسراره ، ويقول لنا المؤلف نفسه في الكتاب نفسه وبالامانة نفسها لمبدئه الاساسى ان سبل الله لا يمكن سبر غورها ، ولكن اذا كانت الامور على هذا التسلل فلم التعرض لهذه المهمة التي هي لا محالة عقيدة ومحبة ؟ ولم اعتقاد تلك السبل التي لا يمكن سبر غورها لتفسير حوارث الحياة الإنسانية ؟ ان التناقض معلوم ولذلك فتحن من غمون ، منها كان ايماننا راسخاً لا يتزعزع ، على التخلص عن التعليل الالهي للتاريخ ، اذا كنا نتسك ولو قليلاً بالنطق ، وإذا لم

لشأ الادعاء بان ما لا يمكن مسبوقة ، اي ما هو عصي التفسير يفسر ويوضح
جميع الاشياء .

لتنتقل الى بوسويه^(١) . ان بوسويه مثل اوغسطين ، يؤيد في مفهومه التاريخ
ووجه النظر اللاهوتية . فهو مقتنع بان مصائر الشعوب في التاريخ ، او حسب
تعبيره ، انتقالات الامبراطوريات ، إنما تنظمها الستبة الالهية ، ويقول في « خطابه
عن التاريخ العالمي » :

« ان هذه الامبراطوريات ارتبطوا ضرورياً بتاريخ شعب
الله . فقد استخدم الله الآشوريين والبابليين لمحاقاة هذا الشعب ،
واستخدم الاسكندر وخلفاء الاولين لخاتمه ، وانتهى خوس
الشير وخلفاء لامتحانه ؛ والرومانيون لدعم حرريته ضد مملوك
سوريا الذين لم يكونوا يفكرون الا بتدمره . وفي اليهود حتى
عهد المسيح تحت سيطرة ارومان انفسهم . ولا انكروه وصلبوا ،
قدم أولئك الرومان ، بصورة لا شعورية ، سواعدم لتكون
أداة الانتقام الالهي ، فأبادوا هذا الشعب الماقي » .

وبكلمة مقتضبة ، ان جميع الامم وبسائر الامبراطوريات الكبرى التي ظهرت
على مسرح التاريخ الواحدة تلو الاخرى ، قد اسهمت بوسائل مختلفة في تحقيق
المدح ذاته ، وهو خير الدين المسيحي ومجده . ويكشف بوسويه لطبيعة
أحكام الله السرية عن الامبراطورية الرومانية وعن روما نفسها ، مستمدًا في ذلك
على ما أوحى به الروح القدس الى يوحنا اللاهوتي فشرخه هذا الاخير في كتابه

١ - بوسويه : Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٠٤) : اسقف فرنسي شير ، عين
مربياً لولي العهد ، قاتل له كتابه « خطاب عن التاريخ العالمي » .

«الرؤيا» : انه تحدث هو ايضاً ، كما لو كفت سبل الله عن كونها عصية الدراسة . وما يلفت الانتباه ان مشهد الحركة التاريخية لا يوحى ببوسويه الا الشعور ببطلان الامور البشرية . فهو يقول :

«عندما ترى (لا أقول الملوك والأباطرة بل) تلك الامبراطوريات الكبيرة التي هزت الكون ، عندما تراها تمر أمام عينيك كالموكب في لحظة قصيرة ؟ عندما ترى الآشوريين القديماء والجدد ، والميديين ، والفرس ، والغربيين ، والرومان ، يبتلون أممك على التوالي ، ويستقطون ، إن صح القول ، بعضهم فوق البعض الآخر ، فإن هذا الصدام المروع ، يجعلك تشعر بأن ليس ثمة شيء راسخ بين الناس ، وإن التقلب والاضطراب ما النصف الخالص بالأمور الإنسانية » .

ان هذا التشاوم هو احدى السمات الأكثـر بروزاً في فلسفة بوسـيه
التـاريخـية . وـاذا امعنا النظر في القضية ، تـوجـبـ الاعـتـراـفـ بـأنـ هـذـهـ السـمـةـ تـمـكـنـ
بـامـانـةـ طـالـيـعـ المـسـيـحـيـةـ الاسـاسـيـ . فـالـمـسـيـحـيـةـ تـمـدـ المؤـمنـينـ بالـعـزـاءـ ، بـكـثـيرـ منـ المـزـاءـ ،
وـلـكـنـ كـيـفـ تـغـيـرـهـمـ ؟ تـغـيـرـهـمـ بـفـصـلـهـمـ عـنـ اـمـورـ الدـنـيـاـ ، وـاقـتـاعـهـمـ بـأـنـ كـلـ شـيـ
بـاطـلـ عـلـىـ الـأـرـضـ ، وـإـنـ السـعـادـةـ مـسـتـحـيـلـةـ لـلـبـشـرـ إـلـاـ بـعـدـ الـموتـ . وـارـجـوـكـمـ أـنـ
تـحـفـظـواـ هـذـهـ السـعـةـ فـيـ ذـاـ كـرـتـكـمـ ؛ فـيـ سـوـفـ تـعـطـيـنـاـ حـدـاـ المـقـارـنةـ .

وأن منه ملحوظة أخرى لفلسفة بوسويه التاريخية هي أنه «خلافاً لأوغسطين، لا يكتفي ، في تطبيقه للجوازات التأريخية ، بالتجزء إلى ارادة الله ، بل يوجه انتباذه نحو ما يسميه الأسباب الخاصة لانقلابات الامبراطوريات . يقول بوسويه :

«فهذا الله ، الذي صنع تسلسل الكون ، هذا الله القادر على كل شيء والذى أراد ، في سبيل اقامة النظام ، ان تكون اجزاء هذا الكل الشامل المظيم متراقبة فيما بينها ، هذا الله ذاته قد أراد ان يكون أيضاً سير الامور البشرية تسلسله ونسبة ، وقصد بذلك ان البشر والأمم قد تحملوا بصفات مناسبة للمرتبة التي قدرت لهم ؛ وانه ، باستثناء بعض الضربيات الخارقة التي أراد الله أن تظهر فيها مده منفردة ، لم يحصل أي تبدل كبير الا وكانت له أسبابه في القرون السابقة . وبما ان لسائر المسؤول ما فيها وما يقرر المباشرة فيها ، وما يتحقق نجاحها ، فان علم التاريخ الحقيق هو في ملاحظة هذه الاستعدادات الخفية التي هيأت التبدلات الكبرى والتquinيات المهمة التي اخرجتها إلى حيز الوجود » .

هكذا ، حسب رأي بوسويه ، تحدث في التاريخ حوادث تظهر فيها مده الله منفردة ، أي بتغيير آخر حوادث يعمل فيها الله بصورة مباشرة . وتلك الحوادث هي ، اذا صح القول ، معجزات تاريخية ولكن ، في معظم الاحوال وفي سير الامور الاغتيادي ، للتبدلات التي تحصل في عهد معين اسبابها في المهد السابقة ، ومهمة العلم الحقيق هي دراسة هذه الاسباب التي ليس فيها شيء خارق ، لأنها لا تتعلق الا بطبيعة البشر والامم .

بوسوبيه يترك اذن ، في مفهومه اللاهوتي للتاريخ ، مجالاً رجحاً للتفسيـر الطبيعـي للحوادث التاريخـية . صحيح ان هذا التفسـير الطبيعـي يرتبط عنـدـه ارتباـطاً وثيقـاً بالفـكرة اللاـهوـتـية ؟ فالله هو الذى يهب البشر والأمم صفات تناسبـ

المربطة التي قدرها لهم . ولكن قد تعطى هذه الصفات ، تتحقق عملها لوحدها ،
وما دامت تتحقق عملهما ، فليس من حقنا فحسب ، بل من واجبنا أيضًا
— وبوسويه يؤكّد ذلك — أن تتحرى التغيير الطبيعي للتاريخ . ومتنازع فلسفة
بوسويه في التاريخ عن فلسفة أوغسطنطين بعثة كبرى هي الماحتها على ضرورة
دراسة الأسباب الخاصة للحوادث .

ولكن هذه الميزة ليست في الأساس ، الا اعترافاً غير واع وغير ارادي دون شك ، بعجز وغم الفهوم الالاهوي بالمعنى الاصلى ، اي المنهج الذي يقوم على تفسير الظواهر بفعل عامل او عدة عوامل خارقة .

وقد اقتنى اعداء الالاهوت استغلال هذا الاعتراف في القرن الثاني .
وان أرعب هؤلاء الاعداء ، فوليتور الملقب بيطربوروك فرنسي ، ينجز من قاتة
الالاهوت في كتابه الشهير « مبحث في طبائع الامم » فيقول :

«لا شيء جدير بفضولنا مثل الطريقة التي أراد بها الله
ثبيت دعائم الكنيسة ، مستخدماً الأسباب الثانية لتحقيق حكماته
الأزلية . فلنترك باحترام ما هو المهي لمن هم سدّته ، ولننصرف
إلى ما هو تارخي » .

المفهوم المتأتي من تاريخ

هكذا وضع المفهوم الاهوبي للتاريخ جانباً بكل احترام وانصرف فولتير^(١) الى الشيء التأريخي ، ساعياً لتفسير الظواهر بأسبابها الثانية ، أي الطبيعة . وهل العلم سوى التفسير الطبيعي للظواهر ؟
 ان فلسفة فولتير التأريخية هي محاولة تعليل علمي للتاريخ . فلتنتظر الى هذه المحاولة عن كسب . ولنر مثلاً ما هي ، حسب رأي فولتير ، اسباب سقوط الامبراطورية الرومانية .

كان الانحطاط الروماني طويلاً وبطيئاً ، ولكن فولتير ييرز ، من بين الكوارث التي سببت سقوط الامبراطورية اليهارة ، سيبين رئيسين : البراءة والجادلات الدينية .

لقد دمر البراءة^(٢) الامبراطورية الرومانية . ولكن فولتير يسأل

١ - فولتير : Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) كاتب وناقد وفيلسوف . غير مثل روح القرن الثامن عشر : الابيان بالعقل وتقدير الانسان .

٢ - البراءة : كان الرومان يطلقون هذا التعبير على جميع الشعوب التي يقيب خارج نطاق حضارتهم . ويقصد به عادة القبائل المسلمة التي اختبأ تابعهم الامبراطورية الرومانية وتتزورها من الشهال بين القرنين الثالث والحادي عشر ، ومعظم هذه القبائل من الجرمان

لماذا لم يندم الرومان ، كما اباد ماريوس قبائل السبار (١) ؟ – لأنّه لم يبق هنالك ميشيل ماريوس والمذى لم يبق هنالك ميشيل ماريوس ؟ – لأنّ طبائع الرومان كانت قد تبدل . وكانت ابرز علامة لهذا التبدل في الطبائع هي ان الامبراطورية اصبح لديها من الرهبان أكثر مما لديها من الجنود ، « وكان هؤلا ، الرهبان يركضون زرافات من مدينة الى اخرى لدعم او هدم مبدأ وحدة جوهر الكلمة » :

« بما ان احفاد سيبوس أصبحوا مجادلين ، وبما ان الاعتبار الشخصي انتقل من امثال هورسبيوس وشيشرون الى امثال سيريل وغريغوار وامبرواز فقد ضاع كل شيء ؛ واما كان منه امر يبعث الى الدهشة فهو ان الامبراطورية الرومانية قد استمرت مع ذلك قليلاً من الوقت » .

انكم ترون من هنا ما هو في نظر فولتير ، السبب الرئيسي لسقوط روما . هذا السبب هو ظفو المسيحية . وعلى كل حال ، فان فولتير يؤكّد ذلك بسخريته اللاذعة :

« لقد قتحت المسيحية أبواب السماء ، ولكنـا أودت بالامبراطورية » ،

فهل كان فولتير على صواب ام كان على خطأ ؟ هذا الامر لا يعنينا الان . وما يهمنا هو ان نفهم بالضبط افكار فولتير التاريخية . اما الفحص الانتقادي فسيأتي فيها بعد .

١ – السبار : Cimires : قبائل بيرية اجاحت بلاد الفال (فرنسا) في القرن الثاني ق. م. فابعدوا ماريوس في مقاطعة بیرون (شمالي غرب ايطاليا) . (المترجم)

من هنا يتبيّن لنا أنّ المسيحية، حسب رأي فولتير، قد أودت بالإمبراطورية ولكتّه بمحق لانسان دون رب ان يسأل عن سبب ظفر المسيحية في روما .

حسب رأي فولتير كانت الاداة الرئيسية لانتصار المسيحيين . الامبراطور قسطنطين الذي يعطي عنه فولتير صورة مطابقة للحقيقة التاريخية . ولكن هل يقدور رجل ، حتى لو كان امبراطوراً و كان على قسط كبير من السوء والتطبيل ان يحقق ظفر دين ما ؟

لقد كان فولتير يعتقد ذلك ممكناً . ولم يكن وجده في عصره على هذا الاعتقاد ، بل كان سائر الفلاسفة يشاركونه فيه . وعلى سبيل المثال سوف اذكر لكم ملاحظات كاتب آخر حول اصل الشعب اليهودي وحواري المسيحية .

وإذا كان المفهوم اللاهوتي للتاريخ يقوم على تفسير التطور التاريخي ببرادة عامل او عدة عوامل خارقة وتأثيرها المباشر او غير المباشر ، فالمفهوم المثالي — الذي ايمنه فولتير واصدقاؤه بقناعة تامة — يقوم على تفسير هذا التطور نفسه بتطور الطيائع ^(١) والافكار ، او الراي ^(٢) ، حسب تغيير القرن الثامن عشر .

يقول سوار Suard

« اقصد بالرأي حصيلة جموع المفائق والآخاء المشتركة في أمة

١ « الطيائع : les moeurs :

٢ « الرأي : l'opinion :

ما هي حوصلة تحدد أحكام الاحترام والاحترار ، والحب والبغض لدى هذه الأمة ، وتكون ميوهاً وعاداتها ، وافكارها وفضائلها وبكلمة واحدة طبائعها .

وما دام الرأي العام هو الذي يحكم العالم ، فبدوري انه يشكل السبب الأساسي ، السبب الأعمق للحركة التاريخية ، ولا مجال للنراية اذا استبعد المؤرخ بانه رأى كثافة تفتح ، في آخر تحليل حوادث هذا المد او ذاك .

وإذا كان الرأي بشكل عام يمثل الحوادث التاريخية ، فمن الطبيعي تماماً ان نبحث في الرأي الديني (في المسيحية مثلاً عن السبب الأعمق لازدهار او انحطاط امبراطورية ما (الامبراطورية الرومانية مثلاً) فقد كان فوائط اميناً لفلسفة عصره في قوله ان المسيحية سبب خراب الامبراطورية الرومانية .

غير ان العديد من فلاسفة القرن الثامن عشر قد اشteroوا بكلورهم ماديين .
هكذا كان هولباخ^(١) مؤلف الكتاب الشهير « نظام الطبيعة » ، وهلقيسيوس^(٢) ، مؤلف كتاب « الفكر » ، الذي لم يكن اقل شهرة من الاول ، وطبيعي جداً ان تفترض ان اولئك الفلاسفة على الاقل لم يؤيدوا المفهوم المتألي للتاريخ .

ولكن مما بدا هنا هذا الافتراض طبيعياً ، فهو خاطئ : فهو لباخ وهلقيسيوس ،

١ - هولباخ : Holbach « ١٧٢٢ - ١٧٩٦ » ، فيلسوف فرنسي مادي ، من اصل بجري . المترجم ،

٢ - هلقيسيوس : Helvétius « ١٧١٥ - ١٧٧١ » ، فيلسوف فرنسي مادي ، كان يرى ان الفكر بكامله يشق من الابحاثات . المترجم ،

الماديان في مفهومها الطبيعية ، كانوا مثاليين فيما يتعلق بال بتاريخ . لقد كان ماديو ذلك المهد اسوة بسائر فلاسفة القرن الثامن عشر ، اسوة بمجاهدة وجل الموسوعة ، يستقدون ان الرأي يحكم العالم وان تطور الرأي يفسر في آخر تحليل التطور التاريخي بمجموعه . يقول هولباخ :

«إن الجهل والخطأ والحكم السابق والتغافل في الخبرة والتفكير والتبصر ، تلك هي النابع الحقيقة للشر الأخلاقي . فإن الناس لا يسيءون بعضهم الى البعض الآخر ولا يجرحون شركاهم الا لأنهم لا يعرفون مصالحهم الحقيقة » . (النظام الاجتماعي او المباديء الطبيعية للاخلاق والسياسة) .

ونقرأ في مكان آخر من الكتاب ذاته :

«برهن لنا التاريخ ان الأمم كانت ، في مجال الحكم ، العوبة جهلها وتقاعدها وسرعة تصديقها وموجات الروع الشديد التي كانت تجتاحها ، وخاصة العوبة اهواه الذين استطاعوا ان يهيمنوا على جهور المعام . وكثيراً ما بدللت الشعوب شكل حكوماتها ، على غرار المرضى اللذين يتقلبون في فراشهم باستمرار ، دون ان يجدوا فيه الوضع المناسب ، ولكنها لم تملك في يوم من الايام السلطة او القدرة التي تمكنها من اصلاح الاساس ، من الرجوع الى متبع أدواتها الحقيقية ؛ بل تقاذفها على الدوام اهواه عبياء » .

وتبين لكم هذه الاستشهادات ان الجهل قد كان في نظر المادي هو بلباخ ،
سبب الشر الاخلاقي والسياسي . فإذا كانت الشعوب شريرة ، فهذا ذلك الى
جهلها ؛ وإذا كانت حكوماتها حمقاء ، فذلك لأنها لم تتمكن من اكتشاف
المبادئ الصالحة للتنظيم الاجتماعي والسياسي ؛ وإذا لم تقلع ثورات الشعوب
جذور الشر الاخلاقي والاجتماعي ، فذلك لأنها لم يكن لديها ما يكفي من
الأفوار . ولكن ما هو الجهل ؟ ما هو الخطأ ؟ وما هو الحكم المسبق ؟ إن
الجهل والخطأ والحكم المسبق ليست كلها سوى رأي خاطئ ، وإذا حال الجهل
والخطأ والحكم المسبق دون اكتشاف الأسس الصحيحة للتنظيم السياسي
والاجتماعي ، فمن الواضح أن الرأي الخاطئ هو الذي حكم العالم . وهو بلباخ
اذن هو ، في هذا المضمار ، على رأي واحد مع معظم فلاسفة القرن الثامن عشر .

أما بصدق هليسيوس ، فلن اذكر سوى رأيه في النظام الاقطاعي حيث
يقول في رسالته إلى سورين عن «روح الشرائع» لونتيسكيو :

« يا للغراية ! ما يريدها مونتيسكيو ان نتعلم من بحثه « عن
الاقطاعات » ؟ وهل يجلس هنا هذا الموضوع بأن ينسى
لإيضاحه مفكر حكيم وعاقل ؟ وأي تشريع يمكن ان ينتج
عن هذه الفوضى البربرية ، فوضى الشرائع التي أقامتها القوة ،
فاحترمها الجهل ، والتي ستصارض دائمًا مع نظام حسن

اللائحة » .

ويقول في مكان آخر :

« موقتسكيو مفروط في نزعته الاقطاعية ، ونظام المركب
الاقطاعي هو منتهى الخلافة » .

هكذا ، يجد هلفيسيوس ان الاقطاعية ، وهي نظام كامل من المؤسسات
الاجتماعية والسياسية ، كانت منتهى الخلافة ، وانها وبالتالي وليدة الجهل او بمعنى
آخر وليدة رأي خاطئ . وهكذا فالرأي قد حكم العالم دائمًا ، في
الخير او الشر .

قلت سابقاً ان ما يهمنا ليس قد هذه النظرية بل ادراها بشكل جيد
وتقيم طبيعتها . والآن بعد ان عرّفناها ، لم يعد تحليلاً لها جائزًا فقط ، بل هو ضروري
أيضاً .

فهل هذه النظرية صحيحة ام خاطئة ؟

هل صحيح ام لا ان انساناً لا يفهمون مصالحهم ليس بامكانهم ان يخدموها
بشكل معقول ؟ هذا صحيح بـ بلا جدال .

هل صحيح ام لا ان الجهل سبب للإنسانية كثيراً من الأضرار وان نظاماً
اجتماعياً وسياسياً يرتكز على خضوع واستهانة الإنسان للإنسان ، كما كانت
الاقطاعية ، ليس ممكناً إلا في عهد يسوده الجهل والباطل الراسخة
رسوخاً عميقاً ؟

هذا صحيح تماماً ، ولا أرى كيف يمكن الجدال في حقيقة لا تقبل الشك
كهذه الحقيقة .

وبكلمة مقتضبة ، هل صحيح ام خطأ ، ان للرأي ، بالمعنى الذي حدده

سوار ، تأثيراً كبيراً على سلوك البشر ؟ كل من يعرف البشر سيقول ان هذا ايضاً نم لابيل الشك او الجدال .

فهل يرتكز اذن المفهوم المثالي للتاريخ على الحقيقة ؟ إنني اجيب نعم ولا .
والآن ماذا اعني بذلك :

إن المفهوم المثالي للتاريخ صحيح ، يعني انه يتضمن بعض الحقيقة . نعم فيه بعض الحقيقة : إن للرأي تأثيراً بالغاً على البشر . ويتحقق اذن لنا القول بأنه يحكم العالم ولكننا نحقق لنا تماماً ان نتساءل عنها فإذا كان هذا الرأي الذي يحكم العالم لا يحكمه اي شيء آخر ؟ وبتعمير آخر ، يمكننا وبحسب علينا ان نتساءل عما إذا كانت آراء البشر وعواطفهم أسراراً خاضعاً للصادفة . إن مجرد طرح هذه المسألة يعني حلها فوراً بالاتجاه السلي . كلا ، ليست آراء البشر وعواطفهم خاصة للصادفة ، وإنما تخضع في نشوئها وتطورها لقوانين يجب ان ندرسها . ومن قلتم بهذا - وهل يمكن عدم قبوله ؟ - فأنت مازمون بالاعتراف بأنه إذا كان الرأي يحكم العالم فهو لا يحكم كحكم مطلق ، بل هو محكوم بدوره ، وبالتالي ، فمن يستجده بالرأي هو بسيط عن تعين السبب الأساسي ، السبب الأعمق للحركة التاريخية .

لذلك فالمفهوم المثالي للتاريخ يتضمن بعض الحقيقة ؛ ولكنه لا يتضمن كل الحقيقة .

ولمعرفة كل الحقيقة ، ينبغي لنا ان نمود الى البحث وان نستأنفه بالضبط حيث ترك المفهوم المثالي للتاريخ . ينبغي لنا ان نسعى لنبيان بصورة صحيحة اسباب نشوء وتطور رأي الناس الذين يعيشون حياة اجتماعية .

ولتسهيل مهمتنا سنسلك طريقاً منهجياً . وقبل كل شيء سترى ما افاده كان

الرأي ، اي وفقاً للتعریف الذي أعلمه سوار جملة الحقائق والآخطاء المنشورة بين الناس ، فطرياً بالنسبة لهم . اي اذا كان الرأي يولد منهم لينزول بزوالهم . هذا يرجع الى التساؤل عما اذا كانت مثـة افكار فطـورية . لقد من زـمن كان الناس مقتنين اقتـناعـاً راسـخـاً ، بـان الـافـكارـ فـطـورـيةـ ، جـزـئـياًـ عـلـىـ الـأـقـلـ . ولـناـ كانـ النـاسـ يـقـلـونـ بـوـجـودـ الـافـكارـ الـفـطـورـيـةـ هـذـهـ ، كـانـواـ يـرـوـنـ فـيـ الـوقـتـ ذـاهـةـ انـ تـكـلـ الـافـكارـ تـشـكـلـ اـسـاسـاـ مـشـترـكاـ لـالـأـنـسـانـيـ قـاطـبـةـ ، اـسـاسـاـ يـقـيـ عـلـىـ الدـوـامـ وـاحـدـاـ فـيـ كـافـةـ الـازـمـةـ وـسـائـرـ الـأـقـالـيمـ .

ولقد كان هذا الرأي واسع الانتشار الى ان كافحه وهزمـه جـونـ لوـكـ^(١) ، وهو فيلسوف انكليزي ذو فضلـ كـبـيرـ . وقد بـرهـنـ لوـكـ فـيـ كـتـابـهـ الشـهـيرـ «ـ بـحـثـ فـيـ الـقـهـمـ الـاقـسـانـيـ »ـ عـلـىـ اـنـهـ لاـ توـبـدـ اـفـكارـ اوـ مـبـادـيـ اوـ مـفـاهـيمـ فـطـورـيـةـ فـيـ عـقـلـ الـاـنـسـانـ .

انـ النـاسـ يـسـتـمـدـونـ اـفـكارـمـ وـمـبـادـهـمـ مـنـ التـجـوـبةـ ، وـهـذـاـ صـحـيـحـ بـصـدـ المـبـادـيـ ، التـأـمـلـيـ وـالـمـبـادـيـ ، العـلـمـيـ اوـ مـبـادـيـ الـاخـلـاقـ سـوـاءـ . فـيـ بـادـيـهـ الـاخـلـاقـ تـبـدـلـ تـبـعاـ لـلـزـمـانـ وـالـمـكـانـ : عـنـدـمـاـ يـشـجـبـ النـاسـ عـمـلاـ ماـ ، فـذـلـكـ لـانـهـ مـضـرـ لـهـ . وـعـنـدـمـاـ يـتـهـوـفـهـ فـذـلـكـ لـانـهـ مـفـيدـ لـهـ . فـالـمـلـصـحـةـ اـذـنـ (ـ الـمـلـصـحـةـ لـاـ اـجـتـمـاعـيـةـ لـاـ المـلـصـحـةـ اـلـخـاصـةـ الـفـرـديـةـ)ـ تـحدـدـ اـحـكـامـ النـاسـ فـيـ مـيـدانـ

١ - لوـكـ : Locke : ١٦٣٢ - فيلسوف انكليزي كـبـيرـ ، مؤـسـسـ الـيـادـ الـجـرـبـيـ «ـ empirismeـ »ـ . كانـ يـرىـ انـ الـاـنـسـانـ يـسـتـمـدـ سـائـرـ اـفـكارـهـ مـنـ التـجـربـةـ عـنـ طـرـيقـ الـجـزـائـ . وقد اـثـرـ تـأـرـيـهـ تـأـثـيرـاـ كـبـيرـاـ عـلـىـ الـفـلـسـفـةـ الـمـادـيـةـ فـيـ الـقـرنـ الثـانـيـ عـشـرـ . «ـ المـرـجمـ »ـ

الحياة الاجتماعية . ذلك كان مذهب لوك الذي بناء سائر الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر . ويحق لنا اذن ان نأخذ هذا المذهب كنقطة ابتداء في تدنا لمجموعهم عن التاريخ .

لا يوجد افكار فطرية في المقل البشري ، والتجربة هي التي تحدد الافكار التأمليه ، والمصلحة الاجتماعية هي التي تحدد الافكار « العمليه » . لنقبل بهذا البدأ وازر ما هي القائمة التي تبجم عنه .

رد الفعل بعد الثورة الفرنسية

ثمة حادث تاريخي عظيم يفصل القرن الثامن عشر عن القرن التاسع عشر ، هو الثورة الفرنسية التي مرت على فرنسا ، كالاعصار ، فدمرت النظام القديم وكتبت بقائه . وأثرت تأثيراً عميقاً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ليس في فرنسا وحدها بل في أوروبا كاظبة ، وكان لا بد لها من انتشار على فلسفة التاريخ .

فما هو هذا التأثير ؟

لقد كانت تبعيتها المباشرة الشعور باعياء هائل . وولد المجد الكبير الذي مذهله رجال ذلك العصر حاجة ملحة للراحة .

وبحانب هذا الشعور باالعياء ، الذي لا بد من حدوثه بعد كل بذلك كبير للقدرة ، ظهرت أيضاً بعض الوبية^(۱) . فقد كان القرن الثامن عشر يؤمن إيماناً راسخاً بانتصار العقل ، ويقول مع فولتير : « إن العقل يتصر دائعاً في النهاية^(۲) » . فجاءت أحداث الثورة لتحطم هذا الإيمان ، إذ

١ - الوبية : scepticisme : فلسفة الشك
La raison finit toujours par avoir raison - ٢

رأى الناس كثيراً من الحوادث غير المتظرفة ، وانتصاراً كثيراً من الأشياء التي كانت تبدو مستحيلة ومخالفة للعقل ، وانهياراً كثيراً من الحسابات الحكيمية تحت منطق الواقع النائم . فأخذوا يقولون أن العقل لن ينتصر أبداً ، على الأرجح . ولدينا على ذلك شهادة ثمينة ، هي شهادة مدام دوستال^(١) ، المرأة الفطنة التي كانت قللاً حظاً بشكل جيد ما كان يدور حولها :

« لقد أربعت التخليات المروعة التي أسفرت عنها الأحداث السياسة معظم الناس ، فقدوا كل اهتمام بتحسين أنفسهم وأمنوا بقوة المصادفة ولم يعودوا يؤمنون بتفوز الملوك القليلة » .

هكذا ، فإن قوة المصادفة قد روعت الناس . ولكن ما هي المصادفة ؟ وما هي المصادفة في حياة المجتمعات ؟ إن في ذلك مادة للنقاش الفلسفي ، ولكن يمكننا القول ، دون الدخول في هذا النقاش ، إن الناس ، في أحيان كثيرة ينسبون للمصادفة ما يبقى بجهول الأسباب بالنسبة لهم ، لذلك ، فعندما يশرون بقوة المصادفة ، بصورة مفرطة أو لمدة طويلة ، ينتهيون إلى محاولة تقسير واكتشاف أسباب الظواهر التي كانوا يتبرونها في السابق عرضية . هذا بالضبط ما نراه في ميدان العلم التاريخي في بداية القرن التاسع عشر .

فلسفة التاريخ عند سان سيمون

يسعى سان سيمون^(١) ، وهو واحد من أوسع المفكرين اطلاعاً ومن أ Cleverest في النصف الأول من هذا القرن ، لوضع أساس علم اجتماعي . وهو يرى أن العلم الاجتماعي ، علم المجتمع الإنساني (أو الفيزياء الاجتماعية كما يسمىها أحياناً) ، يمكن و يجب ، أن يصبح علماً يقيناً يقدر العلوم الطبيعية . و علينا أن ندرس الحوادث المتعلقة بحياة الإنسان الماضية لاكتشاف قوانين تقدمها . ولن يسعنا التنبؤ بالمستقبل ، إلا بعد أن فهمنا الماضي . وفهم الماضي أي لتفسيره يدرس سان سيمون بوجه خاص تاريخ أوروبا الغربية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية .

ويرى في هذا التاريخ نضال الصناعيين (أو الطبقة الثالثة^(٢)) كـ كان

١ - سان سيمون : Saint Simen : - - ١٧٦ - ١٨٢٥ - واحد من أئمة اشتراكية ما قبل ماركس .

«المترجم»

٢ - الطبقة الثالثة : أو الميّة الثالثة Tiers état : تغير كان يطلق ، قبل الثورة الفرنسية ، على الشعب (أي البرجوازيون وال فلاجرون والمال) ، بينما كان الأكابر و الساسة بشكالن الطبقة الأولى والثانية .

«المترجم»

يقال في القرن السابق) ضد الاستقرارية . فقد تناقض الصناعيون مع الملكية، ودعوا الملوك ، وقدموا لهم سائل الاستيلاء على السلطة السياسية التي كانت سابقاً بأيدي الآسياد الاقطاعيين مقابل هذه الخدمات ، منحهم الملكية حمايتها ، فاستطاعوا بواسطة هذه الحماية احراز انتصارات هامة عديدة على اعدائهم . وتوصل الصناعيون شيئاً فشيئاً ، بفضل العمل والتظيم ، الى امتلاك قوة اجتماعية جبارة ، تفوق قوة الاستقرارية بكثير .

ولم يربّان سيمون في الثورة الفرنسية الا صرخة من الصراع العظيم الذي دام قرولاً عديمة بين الصناعيين والنبلاء . وكانت سائر مقرراته العملية تعود الى مشاريع تدابير يتبني ، حسب رأيه ، انماذها لاتمام وتوطيد انتصار الصناعين وانهزام النبلاء . وال الحال أن نضال الصناعيين ضد طبقة النبلاء كان صراعاً مصلحيين متعارضتين . وما زال هذا النضال ، كما يقول سان سيمون ، قد ملاً تاريخ أوروبا الغربية بكامله منذ القرن الخامس عشر ، يمكننا القول ان صراع المصالح الاجتماعية الكبرى هو الذي كان سبب الحركة التاريخية في الفترة المذكورة . وهذا نحن إذن بعيون عن المفهوم التاريخي للقرن الشامن عشر : ليس الرأي هو الذي يحكم العالم ويحدد سير التاريخ ، وإنما المصالحة الاجتماعية ، أو بتعبير أفضل من ذلك مصالحة العناصر الكبرى البانية للمجتمع ، مصالحة الطبقات ، والصراع الاجتماعي الناجم عن تعارض هذه المصالح .

وقد أثر سان سيمون بأفكاره التاريخية تأثيراً حاسماً على واحد من اكبر المؤرخين الفرنسيين : أوغستين تيري . وبما ان أوغستين تيري قد احدث ثورة حقيقة في العلم التاريخي في بلاده ، ثُنَجَ المجدى ان تحمل افكاره .

٥

أوغستين تيري وصيغة

انكم تذكرون ، على ما أعتقد ، ما قلته عن هولباخ . انت بتاريخ الشعب اليهودي مثلاً كان في نظر هولباخ ، من صنع رجل واحد هو موسى ، الذي صاغ طابع اليهود واعطام تكوينهم الاجتماعي والسياسي ، كما اعطاهم دينهم وكان هولباخ يضيف ان كل شعب له موساه . فلم تكن فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر تعرف سوى الفرد ، سوى الرجال العظام أما الجماهير ، اي الشعب يوم صدرت كياناً فاماً بذاته ، فلم يكن له اي وجود تجريبياً . وفلسفة أوغستين تيري(١) التاريخية هي في هذا المضمار عكس فلسفة القرن الثامن عشر . يقول تيري في «وسائله عن تاريخ فرنسا» :

«ان تعتن المؤرخين في حroma الجماهير البشرية من كل غوفة او بصيرة لمن امر يسير تماماً . فإذا هاجر شعب بأسره واقام موطنًا جديداً، فردد ذلك ، حسب قول المؤرخين والشعراء ، الى ان احد الابطال قد اعتم تأسيس امبراطورية

(١) «أوغستين تيري : Angustin Thierry ١٧٩٥ - ١٨٥٦

لأشهر أسمه ؟ وإذا قامت عادات جديدة ، فرد ذلك إلى أن أحد المشرعين قد تخيلها وفرضها ، وإذا تأسست مدينة ، لأن أحد الأمراء قد اوجدها : أما الشعب والمواطنون فيهم دائمًا كقطعة من القماش يفصلها تفكير الرجل الفرد »

لقد كانت الثورة من صنع المجاهير الشعبية ، وهذه الثورة ، التي بما زالت ذكرها حية في زمن «عوده الملكية»^{١٢} لم تسع بالنظر إلى الحركة التاريخية على أنها من صنع افراد ينمازون بقسط كبير او صغير من الحكمة والفضيلة . وبخلاف من الاهتمام بوقائع الرجال العظام وآثارهم ، أصبح المؤرخين عازمين الآن على الاهتمام بتاريخ الشعوب . هذا امر في غاية الاهمية ، ويجدر بنا أن نحفظه في ذاكرتنا .

ولنمض في طريقنا إلى بعد من ذلك ان المجاهير الكبيرة هي التي تصنع التاريخ ، هذا صحيح . ولكن ماذا تصنعه ؟ وبتغيير آخر ، عندما تعمل المجاهير فلا يهدف عملها ؟ لهدف تأمين مصالحها ، هكذا يحب أوغسطين تسييري .

«أتريدون ان تملوا . بالضبط ، من الذي انشأ مؤسسة ما ، من الذي صمم هشروعاً من المشاريع الاجتماعية ؟ ابحثوا عن الذين يحتاجون حقاً إليه ؛ او تلك هم اصحاب فكرته الاولى وارادة العمل ، وعلى أقل تمهيل ، القسط الاكبر

١ - عودة الملكية : Restouration ١٨١٥ - ١٨٣٠ ، الفترة التي عاد فيها آل بوربون الى الحكم ، وتنتهي من سقوط ثالثيون الى ثورة ١٨٣٠ . وبعد مؤخر هنا العهد من صالح الطبقة الوسطى « البرجوازية » .

في التنفيذ ؛ الفاعل هو من ينفذ الفعل^(١) : هذه البدائية
تصح في التاريخ كما في الحقوق .

فالمجاهير تعمل إذن لصلحتها ؛ والصلحة هي مصدر ومبعد كل ابداع اجتماعي . وهكذا تفهم بسهولة انه ، عندما تصبح مؤسسة ما متعارضة مع مصلحة المجاهير : تبدأ المجاهير التضليل ضدها . وبما أن المؤسسة المفترضة جمهور الشعب هي في كثير من الأحيان مقيدة للطبقة صاحبة الامتياز . ويلعب فضال طبقات البشر والمصالح المتعارضة دوراً كبيراً في فلسفة اوغستين تيري التاريخية . فهذا التضليل مثلاً قد ملاً تاريخ انكلترا منذ الفتح النورماندي حتى الثورة التي اطاحت بأسره ستوارت . وفي الثورة الانكليزية التي حصلت في القرن السابع عشر ، كانت تصارع طبقتان : الثالبون(طبقة النبلاء) ، والمتلوبون (جمهور الشعب بما فيه البرجوازية) .

قول مؤرخنا :

«كل شخص وجد اجداده في عداد جيش التزو الكبير كان ينادر قصره للذهاب الى المسكر الملكي لتسلم القيادة التي كان يؤهله لها قلبه . أما سكان المدن والموائمه فـ كانوا يغضون زرافات الى المسكر الملكي . ويع肯ن القول ان نداء الاستئثار لدى الجيدين كان في الجهة الاولى : الفراغ والسلطة ، وفي الجهة الاخرى : العمل والحرية ؛ فالمطلوبون في كل مكان وقصاراتهم في استئثار بلا

١ — قاعدة معروفة في الحقوق ازرومانية . وردت في الاصل باللغة الاتينية . «المترجم»

عناء، كانوا ينخرطون في الجيوش الملكية للدفاع عن معالج
تفق ومحاصيلهم؛ بينما كانت عائلات قلة الفالبين القدماء الذين
ادركتهم الصناعة يتضيرون الى حزب الكومونات،
ولم يكن هذا التناقض بين الطبقة بحسب الحركة في الميدان الاجتماعي
والسياسي وحده، بل زر اثره في حقل الافكار ايضاً. فالآراء الدينية لدى
انكلترا في القرن السابع عشر كانت، بنظر تيري، تتلخص شكل او خلاعهم
الاجتماعية.

«لقد كان الفريقان يتابعان الحرب في سبيل مصالح وضعية وما تبقى لم يكن الا ظاهرأ او ذريعة . فلن كانوا يتضمنون الى صف الرعايا كانوا بنالبيتهم قسيسين (١) أي أنهم لم يكونوا يربدون اي نيو حتى في مجال الدين . ومن كانوا مدحومون القضية المضادة كانوا اسقفيين او باپويان (٢) ؛ ذلك لأنهم كانوا يحبون ان يجدوا حتى في اشكال العبادة ، سلطة عارسونها وضرائب يحيونها من الناس ».

ها تمحن بيتعداً أكثر عن فلسفة القرن الثامن عشر . في ذلك القرن ، الرأي يحكم العالم . أما الآن ، فرأي في مجال الدين يحدد ، يحكم نضال الطبقات .

وتجدر الاشارة إلى أن المؤرخ الذي تناولته في حدثي ليس وجده على

القسيسون : presbytériens : فئة يروتسنانية لا تعرف بسلطة الأساقفة ، ولا تُعترف
بـ**الإلساقية** . (المترجم)
٢ - **الأساقفون مـ الأذـكـارـيـاتـ وـ الـأـبـرـيـونـ مـ الـكـاثـولـيـكـ** . (المترجم)

هذا الاعتقاد إنما فلسفته التاريخية هي فلسفة جميع المؤرخين المرموءين في عهد «عودة الملكية» . فبينه^(١) وهو أحد معاصرى أوغستين تيري ، يؤيد وجهة النظر ذاتها في مؤلفه القيم «الاقطاعية» ، حيث ينظر إلى التطور الاجتماعي على النحو التالي :

«إن المصالح السائدة تقرر الحركة الاجتماعية . وتبلغ هذه الحركة هدفها، خلال متضادات، وتتوقف حين يلوغها هذا المدف فتحل علينا حركة أخرى لاتشاهد عند ابتدائها ولا تكشف عن نفسها إلا عندما تصبح الحركة الأقوى هكذا كانت سير الاقطاعية . في الفترة الأولى ، كانت في الحاجات قبل أن تكون في الواقع ، وفي الفترة الثانية ، أصبحت واقعاً وكفت عن كونها حاجة ؛ الامر الذي أدى إلى اخراجها من حيز الواقع» .

هكذا نجد من انفسنا من جديد على مسافة كبيرة من فلسفة القرن الثامن عشر . لقد كان هليسيوس يأخذ على مونتسكيو أنه يدرس الشريائع الاقطاعية باعتباره مفترط ، ويرى أن النظام الاقطاعي منهي الحافة وليس بالتأني جديراً ببناء البراسة . أما مينيه فهو يقبل على العكس من ذلك ، انه من زمان ، هو المصور الوسطى ، كان فيه النظام الاقطاعي في الحاجات ، أي انه كان فيه مفيدةً للجتماع ويقول أن هذه الفائدة هي بالضبط ما قوله . وكثيراً ما يكرر مينيه أن الناس

١ - مينيه Miguet (١٧٩٦ - ٤٨٨) .

ليسوا هم الذين يسيرون الاشياء ، وانما الاشياء هي التي تسير الناس . وهو يتنظر الى

« لقد كانت للطبقات الارستقراطية مصالح مضادة لصالح حزب الامة . لذلك فالبله ، وكمار رجال الابكيروس ، الذين شكلوا الجناح اليميني في الجماعة كانوا في تعارض دائم مع هذا الحزب ، باستثناء بعض أيام المائسة والاندفاع . اذ هؤلاء المستائين من الثورة الذين لم يستطيعوا لا منها بتفصيلاتهم ولا إيقافها بانضمامهم اليها ، قد كا نجروا بصورة منتظمة سائر اصلاحاتها »

هكذا ، فان الجماعات السياسية تحدها مصالح الطبقات . وهذه المصالح ذاتها تولد الاعتبارات السياسية . ويقول لنا مينيه إن دستور ١٧٩١

« كان من صنع الطبقة الوسطى التي كانت أقوى الطبقات في ذلك الحين ؛ إذ أن القوة السائدة ، كما هو معروف ، تستولي دائماً على المؤسسات . وكان نهار ١٠ آب انتفاضة جهور العوام ضد الطبقة الوسطى وضد العرش المستوري كما كان يوم ١٤ تموز انتفاضة الطبقة الوسطى ضد الطبقات صاحبة الامتياز وحكم الاطلاق (١) » .

وكان مينيه عملاً مقتنعاً بالطبقة الوسطى ، شأنه شأن تيري ؛ ومتداهالت القضية قدرir عمل هذه الطبقة - السياسي ، ثنيه يذهب حتى الى المصادفة

(١) ١٤ تموز ١٧٨٩ سقوط الباستيل ، ١٠ آب ١٧٩٢ : انتفاضة جاپير بليبي ، ادت الى اعتقال الملك وسقوط الملكية . (المترجم)

بالوسائل النافية : « لا يمكن احراز الحق الا بالقوة ». ونجد عند غزو^(١) الاتجاهات والميول ووجه النظر ذاتها . ولكن هذه الاتجاهات والميول أكثر بروزاً عنده ، ووجهة النظر هذه أكثر وضوحاً . ففي مؤلفه « بحوث في تاريخ فرنسا » الصادر في عام ١٨٢١ ، يتبع بوضوح كبير ما هو ، في رأيه ، أساس البناء الاجتماعي .

لقد سعى معظم الكتاب والملايين والمؤرخين والمؤلفين الى معرفة حالة المجتمع ودرجة حضارته ونوعها عن طريق دراسة مؤسسه السياسية . ولكن الحكمة كانت تفضي اليه بدراسة المجتمع نفسه لمعرفة وفهم مؤسسه السياسية . فالمؤسسات هي نتيجة ، قبل ان تصبح شيئاً ، والمجتمع ينتجه قبل ان يتبدل بتأثيرها ؛ وبدلأ من البحث عن حالة الشعب في نظام الحكم او اشكاله ، يجب قبل كل شيء ، تفحص حالة الشعب لمعرفة ما هو الحكم الذي كان يجب ويعکن أن يقوم .

ويكفينا ان نجد نصوصاً بالمعنى نفسه في مؤلفات غيزو وأرمان كاريل وتو كفيل . لذلك ، أعتقد أنه يحق لي القول أن علماء الاجتماع والمؤرخين والقادة كانوا في مطلع القرن التاسع عشر يسيرون الى الحالة الاجتماعية باعتبارها الاساس الأعمق لحوادث المجتمع الانساني . ونعلم ما هي هذه الحالة ، أنها « حالة الاشخاص » حسب تعبير غزو ، اي حالة الملكية . ولكن من أين تأتي هذه الحالة التي يتوقف عليها كل شيء في المجتمع ؟ متى

١ - غيزو : Guizot (١٧٨٧ - ١٨٧٤) : مؤرخ فرنسي أصبح وزيراً في عهد الملك لويس - فيليب . (المترجم)

حصلنا على جواب واضح ودقيق لهذا السؤال ، سنتذكر من تفسير تقدم النوع البشري وحركته التاريخية ولكن هذه المسألة الكبرى ، التي هي مشكلة الشاكل ، ما زال المؤرخون يتركونها بدون جواب .

في حديثي عن تطور فلسفة التاريخ ، كنت انظر الى فرنسا بوجه خاص ، وجميع المؤلفين ، الذين عرضت أفكارهم التاريخية كانوا فرنسيين باستثناء القديس اوغسطين وهو لاتين والآن ، سنجاز الحدود لنضع أقدامنا على الارض الألمانية .

فلسفة التاريخ عند شيلنخ

لقد كانت ألمانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بلد الفلسفة الكلاسيكي، فقد أخذ فيخته وشيلنخ وهيلنغ وغيرهم كثيرون من كانوا أقل شهرة، ولم يكونوا أقل شفافية بالبحث عن الحقيقة، أخذوا يعمقون في المسائل الفلسفية، تلك المسائل الخفيفة التي أصبحت قديمة جداً والتي ستبقى مع ذلك جديدة على الدوام.

وين هذه المسائل الكبرى، تختل فلسفة التاريخ مكاناً داماً، وإن يذهب هباءً أن زرَّى كيف كان الفلاسفة الأليان محلون مسأله معرفة أسباب تقدم النوع الانساني وحركته التاريخية. ولكن، بما أنه ليس لدينا متسع من الوقت لتحليل فلسفة التاريخ الخاصة بكل منهم في تفاصيلها، فتحن مرغمون على الاكتفاء بتوجيه السؤال إلى الفيلسوفين الرئيسيين: شيلنخ وهيلنغ؛ وزد على ذلك أنه لن يسعنا إلا أن نلم إلماً بسيطاً بأفكارهم التاريخية، وهكذا في صدد شيلنخ^(١) لن تحدث إلا عن مفهومه للحرية.

١— شيلنخ Schelling ١٧٧٥ - ١٨٥٤

إن التطور التاريخي سلسلة من الحوادث الخاصة لتوانين ، والحوادث
الخاصة لتوانين هي حوادث ضرورية . مثلاً ، المطر . المطر هو حادث خاضع
لتوانين ؟ وهذا يعني أنه ، في ظروف معينة ، همة تساقط في الماء تساقط بالضرورة
على الأرض . وهذا يفهم بسهولة كبيرة عندما تتعلق القضية بتساقط الماء التي
ليس لها وعي أو إرادة .

ولكتنا في الحوادث التاريخية ، لا نواجه أشياء جامدة ، وإنما نواجه بشرًا يملون ، والبشر يتمتعون بالوعي والارادة ، فيحق لنا بالتالي أن نسائل عما إذا كانت **الضرورة** — التي لا يوجد خارجها مفهوم على المظاهر في التاريخ كافى علم الطبيعة — لاتقى فكرة **الحرية الإنسانية** . وإذا صننا المسألة بكلمات أخرى فهى **تطرح على التحرر التالي** : هل من سبيل للتفريق بين العقل الإنساني والضرورة التاريخية ؟

يبدو لنا للنظرية الأولى أن ذلك غير ممكن وأن الضرورة تبني الحرية وبالعكس . ولكن الأمور ليست على هذا الشكل إلا بالنسبة لمن يتوقف نظره عند سطح الأشياء ، عند قشرة الطواهر . في الحقيقة ، إن هذا التناقض « الشير » ، هنا التنافي المزعوم بين الحرية والضرورة ليس له وجود . فالضرورة لا تبني الحرية ، إنما تشرطها وأساسها . هذا بالضبط ما كان يحمل شيلينغ للتدليل عليه في أحد فصول كتابه « مذهب المثالية العالمية » .

أكمل حساب أحسبه قد تطليع به في كل لحظة حرية النير ، وبالتالي قد ينتج عن أفعالي خلاف ما كنت أتوقع هكذا تكون حرفي مدعومة وحياتي خاصة للصادقة ، ولا أستطيع التأكيد من نتائج أفعالى إلا في الحالة التي أستطيع فيها التنبؤ بأفعال النير ، ولكي أستطيع التنبؤ بها ، ينبغي أن تكون خاصة لقوانين ، أي أن تكون محددة ، أن تكون ضرورية . فضورورة أفعال الآخرين هي اذن الشرط الأول حرية أفعالى .

ولكن من جهة أخرى ، عندما يصل الناس بصورة ضرورية ، يمكنهم في الوقت نفسه أن يحافظوا على الحرية التامة لفاطلهم .

ما هو الفعل الضروري ؟ إنه الفعل الذي يستحيل على فرد معين أن لا يفعله في طروف معينة . ومن أين تأتي استحالة عدم القيام بهذا الفعل ؟ إنها تأتي من طبيعة هذا الإنسان التي صاغها وراثته وتطوره السابق . إن طبيعة هذا الإنسان لا تسمح له بأن لا يسلك سلوكاً معيناً في ظروف معينة . هذا واضح آليس كذلك ؟ وإذا أضفتنا أن طبيعة هذا الإنسان لا تسمح له بأن لا يملك بعض التزعات الارادية ، تكون قد وقنا بين مفهوم الحرية ومفهوم القيرونة . أكون حوا عندما يمكنني أن أفعل كما أريد ، وفلي الحر هو في الوقت نفسه ، ضروري ، مادام

نوعي الارادي بمدده تكيني المضوي والظروف المبنية ،
فالضرورة اذن لا تبني الحرية .

الضرورة هي الحرية بالذات ، منظوراً إليها من جانب آخر
أو من زاوية أخرى .

وبعد أن لفت انتباهم إلى الجواب الذي أعطاه شيلنج على المعضلة الكبرى
معضلة الضرورة والحرية ، أنتقل إلى معاصره ، إلى رفيقه وخصمه ، هيفل ،

فلسفة التاريخ عند هيغل

ان فلسفة هيغل^(١) هي كفلسفة شيلنج . فلسفة مثالية . فهو يرى أن الفكتور (او الفكتورة)^(٢) هو الذي يكون أساس كل ما هو موجود . بل روحه انت صح التعبير . والمادة نفسها ليست الا انعطاً من اعطاء وجود الفكر أو الفكرة . هل ذلك ممكن ؟ أحقاً أن المادة ليست الا انعطاً من اعطاء وجود الفكر ؟

ثالث مسألة ذات أهمية كبيرة من الوجهة الفلسفية . ولكن ليس علينا ان نغفلها هنا . وما يازمنا هو دراسة الافكار التاريخية التي كانت تنشد على هذا الأساس المتمالئ في مذهب هيغل .

يرى هذا المفكر الكبير ان التاريخ ليس سوى تفتح هذا الفكر المكوني وابساطه في الزمان . وفلسفة التاريخ هي التاريخ منظور اليه بذاته . وهي تأخذ الواقع كما هي ، والفكرة الوحيدة التي تضيقها هي الفكرة الثالثة بأن القل يحكم العالم . هذا يذكركم دون ريب بفلسفة القرن

(١) : Hegel هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١)

(٢) : الفكر Esprit ، الفكرة Idée :-

الثامن عشر التي كانت تصر ان الرأي او العقل هو الذي يحكم العالم . ولتكن هيغل كان يفهم هذه الفكرة على نحو خاص . وهو يقول في دروسه عن فلسفة التاريخ ان أنаксاغور (١) هو اول من اقر فلسفياً بأن العقل يحكم العالم ؛ ولم يكن يقصد بالعقل ذكاء يعي نفسه ، او فكراً بوصفه فكراً ، بل قوانين عامة ان حركة منظومة الكواكب السيارة تحصل وفقاً لقوانين ثابتة ، وهذه القوانين هي علتها ، ولكن لا الشعور ولا السيارات التي تتحرك وفقاً لهذه القوانين تهي ذلك . فالعقل الذي يحكم الواقع هو اذن ، في نظر هيغل ، عقل غير واعٍ ، وهو ليس سوى جمل القوانين التي تحدد الحركة التاريخية .

اما رأي البشر ، ذلك الرأي الذي كان يعتبره الفلسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر الدافع الرئيسي للحركة التاريخية ، فإن هيغل يعتبره ، في معظم الاحوال ، كشيء يحدد نمط الحياة ، او يعبر آخر الوضع الاجتماعي . فهو يقول مثلاً ، في فلسفة الماركسية ، ان سبب انحدار طبقة سبارته كـان التفاوت الهائل بين التروات و يقول ايضاً ان الدولة بوصفها تنظيم سياسياً ، تستمد اصلها من تفاوت الثروات ونضال المقراء ضد الاغنياء . وليس هذا كل شيء . فإن اصل العائلة مرتبط ، حسب رأيه ، ارضاً وثيناً بالتطور الاقتصادي الشوب الابتدائية . وبالاحصار ، كان هيغل رغم مثالاته ، يلجأ ، كالمؤرخين الفرنسيين الذين تناولنام فيما سبق ، الى الوضع الاجتماعي باعتباره الاساس الاعمق لحياة الشوب . وفي ذلك ، لم يتأخر هيغل عن

١ - : انكساغور Anaxagore

عصره ، ولكنه لم يتقدم عليه ايضاً . وهو يبق عاجزاً عن تفسير اصل الوضع الاجتماعي ، ما دام قوله — ان الوضع الاجتماعي لشعب ما في عهد معين يتوقف ، مثل وضعه السياسي والديني والبديعى والأخلاقي والثقافي ، على روح العصر — لا يفسر شيئاً .

ويستجده هيغل المتألبي بالفکر ، ويعتبره الدافع الاخير للحركة التاريخية : فمثمنا ينتقل شعب ما في تطوره من درجة الى اخرى ، فرد ذلك ان التکون المطلق (او الكوني) — وهذا الشعب ليس الا اداته — قد ارتقى الى مرحلة اعلى في نبوه ولا كانت مثل هذه التفسيرات لا تملل اي شيء على الاطلاق . وقد وجد هيغل نفسه في ذات الحلقة المفرغة التي وقع فيها علماء الاجتماع والمؤرخون الفرنسيون : فهم يفسرون الوضع الاجتماعي بمحاله الافكار وحالة الافكار بالوضع الاجتماعي .

نرى من جميع الجهات — الفلسفة والتاريخ بالمعنى الاصلي والادب على السواء — ان تطور العالم الاجتماعي في مختلف فروعه كان ينتهي الى مسألة واحدة هي تفسير اصل الوضع الاجتماعي . وما دامت هذه المسألة بلا حل ، كان العلم لا ينفك عن الدوران في حلقة مفرغة ، باعلانه ان بسبب امع تعينته اكسبب اب . وبالمقابل ، فكل شيء ميئجي عند حل مسألة الوضع الاجتماعي .

المفهوم الماركسي للتاريخ

لقد استهلَّ ماركس حل هذه المسألة عندما صاغ مفهومه المادي . وبروي ماركس بنفسه في مقدمة مؤلفه « تقد الاقتضاد السياسي » كيف قادته دراسته إلى هذا المفهوم .

لقد أفضت إبحاثي إلى التبيّحة التالية : لا يمكن تفسير العلاقات الحقوقية ، وشكل الدولة لا بذاتها ولا بالتطور العام المزعوم للفكر البشري ، وإنما هي تستمد جذورها من شروط الحياة المادية التي كان يفهمها هيغل تحت اسم « المجتمع المدني » (١) اسورة بالفلاسفة الانكليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر .

وكان زوجي ، هذه هي التبيّحة نفسها التي انتهى إليها المؤرخون وعلماء الاجتماع والنقاد الفرنسيون كما انتهى إليها ايضاً الفلاسفة المتألدون الآلام . ولتكن ماركس يذهب أبعد من ذلك . فهو يسأل عن الاسباب التي تحدد المجتمع المدني ، ويحثّ انه ينبغي البحث عن تشريح المجتمع

١ - المجتمع المدني : *la société civile*

المدني في اقتصاد السياسي . هكذا ، فالوضع الاقتصادي لشعب ما ، هو الذي يحدد وضعه الاجتماعي ، والوضع الاجتماعي لهذا الشعب يحدد بيوره وضعه السياسي والديني وهكذا دواليك . ولكنكم مستساعلون عما إذا لم يكن للوضع الاقتصادي من سبب أيضاً لاريب ان لهذا الوضع سببه الخاص به ، بكل شيء في هذه الدنيا ، وهذا السبب ، السبب الاساسي لمجموع التطور الاجتماعي وبالتالي لكل حركة تاريخية ، هو الصراع الذي يخوضه الإنسان مع الطبيعة في سيل وجوده . وأيكم ما يقوله ماركس بهذا الصدد :

« إن الناس أثناه ، الانتاج الاجتماعي لمييشتم يسيرون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم . وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قوام المجتمع المادي . ويجموع علاقات الانتاج هذه يشكل البناء الاقتصادي للمجتمع ، أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء علوي (١) ، حقوقى وسياسي ، وتطابقه كذلك اشكال معينة من الوعي الاجتماعي . إن اسلوب انتاج الحياة المادية يكيف سير الحياة الاجتماعية والسياسي والفكري ، بصورة عامة . فليس وعي الناس هو الذي يحدد معيشتهم ، بل ، على العكس من ذلك ، معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد وعيهم . وعندما تبلغ قوى المجتمع المتوجه درجة معينة في تطورها ، تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج الموجودة ، او مع علاقات الملكية . وليس هذه سوى التعبير الحقوقي لذلك . تلك العلاقات التي كانت تتحرك ضمناً القوى

١ - البناء العلوي : La superstructure

المتتجة الى ذلك الحين . وبعد ان كانت هذه العلاقات اشكالاً لتطور القوى المتتجة تصبح قيوداً لهذه القرى ، وعندئذ يفتح عهد ثورات اجتماعية . فان تثير الاساس الاقتصادي يزعزع كل البناء الملوى المأهول على صور مختلفة من السرعة او البطء .

وعند دراسة هذه الانقلابات ، ينبغي دائمآ التمييز بين الانقلاب المادي لشروط الانتاج الاقتصادية - هذا الانقلاب الذي يلاحظ بالدقة الملاصقة بعلوم الطبيعة - وبين الاشكال المخوقة والسياسية والدينية والفنية والفلسفية ، أو بكلمة مقتضية ، الاشكال الایديولوجية التي يتصور فيها الناس هذا الزماع ويقودونه الى نهايته . فكما انه لا يمكن الحكم على فرد وفقاً للفكرة التي لديه عن نفسه ، كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا وفقاً عن نفسه . بل يتبعني تفسير هذا الوعي باتفاقات الحياة المادية وبنزاع قوى المجتمع المتتجة مع علاقات الانتاج . إن أي تكون اجتماعي لا يعود أبداً قبل ان تتطور القوى المتتجة التي يستطيع ان يفسح لها المجال ، وان علاقات الانتاج الجديدة ، المتفوقة على القديعة ، لا تظهر ابداً قبل ان تنسج شروط وجودها المادية في قلب المجتمع القديم . ولهذا فالإنسانية لا تضع أمامها ابداً إلا المسائل التي تستطيع حلها . إذ أنه يتضح ، عند الامان في الامور ان المسألة نفسها لا تبرز الا عندما تكون الشروط المادية خلها موجودة او ، على الاقل ، آخذة في التكوّن .

انني افهم تماماً ان هذا الكلام قد يبدو غامضاً ، رغم وضوحه ودقته .

لذلك ابادر الى شرح الفكرة الاساسية في المفهوم المادي للتاريخ .
ترجم فكرة ماركس الاساسية الى الامر التالي : ان علاقات الاتصال
تعدد جميع العلاقات الاخرى التي توجد بين الناس في حياتهم الاجتماعية . واما
علاقة الاتصال فيحددها وضع القوى المنتجة .
ولكن اولاً ، ما هي القوى المنتجة ؟

ان الانسان مرغم على النضال في سبيل وجوده، شأنه شأن سائر الحيوانات .
وكل نضال يتعرض بذلك قوى ميسنة . وحالة القوى تحدد نتيجة النضال . وعند
الحيوانات ، توقف هذه القوى على بنية المهازن العضوي بالذات : قوى
المحمان البري تختلف تماماً عن قوى الاسد ، وسبب هذا الاختلاف يمكن
في اختلاف التنظيم العضوي . والتنظيم العضوي للانسان يؤثر بالطبع تأثيراً
خاصاً على طريقة نضاله في سبيل وجوده ، وعلى نتائج هذا النضال . وهكذا
متلاً ، الانسان بجهز باليد . صحيح ان اقرباه دوي الابدي الاربع (القردة)
على كون الابدي ايضاً ، ولكن ايدي القردة أقل تكيفاً مع الاعمال المتنوعة .
فاليد هي الاداة الاولى التي استخدمها الانسان في نضاله من اجل الوجود
كما يبين لنا ذلك دارون .

ان اليد مع التراب هي الاداة الاولى والآلة الاولى التي يستخدمها الانسان
وعضلات التراب تؤدي مهمة النايلن الذي يضرب او يرمي . غير ان الآلة
أخذت تظهر خارج الجسم شيئاً فشيئاً . لقد أفاد الحجر في بادي الامر بقلة ،
بكتلته . وفيما بعد ، ثبتت هذه الكتلة على مقبض . وهكذا نشأت البطة
والملقطة . ان اليد وهي الاداة الاولى عند الانسان تخدمه لاتخاذ ادوات
اخري وتكيف الماده النضال ضد الجبيعة أي صد بقية المادة المستقلة .

وكلا ارقت هذه المادة المستبددة ، مما استخدام الادوات والآلات وازدادت ايضا قوة الانسان ضد الطبيعة ، اي ازدادت سلطته على الطبيعة لقد عرف الانسان بأنه جivo ان يصنع آلات . وهذا التعرف لأعمق مما يظن للوهلة الاولى فخذ ان اكتسب الانسان القدرة على استعمال و تكثيف قسم من المادة للتناول ضد ماتبقى منها ، لم يعد الاصطفاء الطبيعي ولاسباب المائة الاخرى الا اثر ثانوي على التبدلات الجسدية عند الانسان .

ولم تمد اعضاؤه هي التي تنير ، بل ادواته والاشياء التي يكيفها مع متضيقات استعماله بمساعدة ادواته : فلم يجد جله هو الذي يتغير بتغير المناخ بل لباسه . والتحول الجسدي للانسان يتوقف (او يكاد) ، ويحمل علىه تطوره التكنيكى ؛ والتطور التكنيكى هو تطور القوى المنتجة ؛ وتتطور القوى المنتجة يؤثر تأثيراً حاماً على شكل اجتماع البشر وعلى حالة ثقافتهم . ويعزى العلم ، في ايماناً عده اقسام اجتماعية : ١ - الصناد ، ٢ - الراعي ، ٣ - المزارع المسقرون ، ٤ - الصناعي والتجاري ، وكل من هذه الانماط تغيره علاقات معيشية بين الناس ، علاقات لا تتوقف على ارادتهم بل تحددها حالة القوى المنتجة .

لتأخذ مثلاً علاقات الملكية . ان نظام الملكية يتوقف على اسلوب الاتاج ، اذ ان توزيع التروات ، واسهلاً كهما مرتبان ارتباطاً وفقاً بطريقة الحصول عليها .

فالشعوب البدائية التي تعيش على العيد رغم في كثير من الاحيان ، على حشد افراد عديدين لتفصيل الحيوانات الكبيرة . هكذا يصيغ الاوستراлиون الكثئف بجماعات تتألف من عشرات من الافراد ، ويجمع

الاسكيو عددًا من الزوارق الصغيرة لصيد الحوت . وتبصر الكناغر التي اقتضت والحيتان التي جلبت الى الشاطئ . ملكا مشتركا ويأكل منها كل فرد حسب شهيته . وتبieraرض كل قبيلة عند الاوستراليين ، كما عند جميع الشعوب التي تعيش على الصيد ، ملكا جماعيا ، وكل فرد يصيد فيها حسب رغبته ، ولا يقيده الا شرط عدم التعدى على ارض القبائل المجاورة

ولكن في وسط هذه الملكية المشتركة ، تبصى بعض الاشياء التي تحكم الفرد وحده كاللبسة والاسلحة ملكا فرديا ، بينما تكون الخيمة وائتمانها ملكا للعائلة . كذلك فالزورق الذي تستخدمه جماعات تتألف من خمسة الى ستة رجال ، هو ملك مشترك لهؤلاء الاشخاص . فما يقرر الملكية اذن هو اسلوب العمل ، اسلوب الاتصال .

لقد قطعت "بلطة" من الصوان يدي ففي ملك لي . وبنيت "الكونغ الصغير" مع زوجي وأولادي فهو لاسرتى . لقد اضطربت من ابناء قبيلتي ، فالحيوانات التي صرعنها هي ملك مشترك لنا . والحيوانات التي قتلتها بعفري على ارض القبيلة هي ملك لي . وإذا حدث ان قضى غيري على الحيوان الذي جرحته انا ، فهو ملك لاثنين والجلد ملك لمن وجه الضربة القاضية . ولهذا الغرض ، فان كل سهم يحمل علامات الملاك .

وثمة أمر يستحق الاعتبار : لقد كان صيد الثور الوحشي عند هنود اميركا الشهابية ، قبل دخول الاسلحه النارية ، خاصاً لقواعد بالفة الدقة : فإذا دخلت عدة أسمهم في جسم الثور ، كان موضعها يحدد لمن يعود هذا أو ذاك من اجزاء الحيوان الصريح ؛ وهكذا فالجلد ملك لمن كان موضع سهمه أقرب الى القلب . ولكن منذ دخول الاسلحه النارية ، وبعا أن الطلقات

لأنه لا يتحمل علامات عيزة ، أصبحت الثيران الصريحة قوزع بالتساوي ؛ وهي إذن تبدو ملائكة مشتركة . وبين هذا المثل بخلاف الارتباط الوثيق الموجود بين الانتاج ونظام الملكية .

هكذا ؟ فعلاقة الناس المبادلة في الانتاج تقرر علاقات الملكية ، او حالة الملكية كما كان يقول غيره . ولكن متى عرفت حالة الملكية ، يصبح فهم تكوين المجتمع امرًّا يسيرًا ، إذ أن هذا التكوين يتلخص في شكل الملكية . وبذلك ، فإن نظرية ماركس تحمل المسألة التي استعصم على مؤرخ وفلاسفة التصوف الاول من القرن التاسع عشر .

المفهوم المادي للتاريخ

حول كتاب «ابحاث عن المفهوم المادي للتاريخ»، تأليف
انطونيو لا بريولا، استاذ في جامعة روما، مع مقدمة لج،
سورييل، باريس ١٨٩٧

١

»المادية الاقتصادية«^(١)

لتعرف بالامر : لقد كان يخليقنا بعض التخوف عندما فتحنا هذا الكتاب الذي ألقه استاذ في جامعة روما ، اذ أن مطالعتنا لبعض المؤلفات المائدة لبعض مواطنه كأشيل لوريا مثلاً (وبوجه خاص لكتابه (النظرية الاقتصادية المكونين السياسي)) كانت قد اذربعنا بغير ، ولكننا اضطرنا من ذلك الصفحات الاولى الى ادراك الحقيقة وهي أنتا أخطأنا وانه ليس من شيء نشتراك بين آشيل لوريا وأنطونيو لا بريولا ، وبعد ان قرأنا الكتاب بكامله تبيننا أن نحدث عنه القاريء الروسي ؟ ونحن نأمل أنه لن يشكى من ذلك !

فما أقبل الكتب الجيدة !

لقد صدر مؤلف لا بريولا بادي ، الامر باللغة الإيطالية . وإن ترجمته للفرنسيية شديدة وفاحشة حقاً في بعض الموضع . نحن لا نتردد في تأكيد ذلك رغم أن الأصل الإيطالي ليس في حوزتنا . ولكن المؤلف ليس مسؤولاً عن الترجمة الفرن西ية . وبعد ، فإن افكار لا بريولا تبقى واضحة حتى في هذه الترجمة الركيكة . لتفحص إذن هذه الافكار .

١ - عنوان هذه الدراسة من وضع المترجم .

اسألاً مفكراً شعبياً أو ذائياً ماذا يقصد بالسادي . سيعجبكم انه من يعزي للعامل الاقتصادي دوراً غالباً في الحياة الاجتماعية . هكذا يفهم التعبيون والذاتيون المادية الاقتصادية . وعليينا ان نتعرف بالواقع نهضة من يعزون «العامل» الاقتصادي دوراً غالباً في حياة المجتمعات البشرية . فقد أشار السيد ميخائيلوفسكي (٢) ساراً الى أن لوبي بلان قد تحدث عن سيطرة العامل المذكور قبل معلم (٣) من يعرفون باسم الابناء الروس ولكن هناك أمراً لا يفهمه : لماذا يتوقف باحثنا الاجتماعي

١ - كارييف : مؤرخ مثالي روسي حارب الماركسية بعنف . - المترجم -

٢- ميخائيلوفسكي : أحد مفكري التعبية « (الزاروديه) » وهو من أنصار النهج المتألِّف الذي اتى في عمل الأجياع . وقد رد عليه لينين في كتابه « من ماصناعة الشعب وكيف يعابون الاشتراكيين الديمقراطيين » .

٢- المقصود بالعلم كارل ماركس . أما الاتناع فهو انباعه . وقد كانت الصحافة الماركسيّة الشريعة تلجزاً إلى هذه التعبير لتضليل الرقابة القبصريّة والترضيّن نفسه ، كانت تسمى ماركس «علمًا اقتصاديًا معروفاً» ، وأحيانًا «كتابًا معروفاً» ، ونشرت بنسفيكيّ مؤلف كتاب عناوين حول الدور الفوغولي في الأدب الروسي ، أو مؤلف كتاب ملاحظات حول الاقتصاد السياسي عند ستيفورد ميل . - المترجم -

المخزم عند لوبي بلان؟ يجدر به أن يعلم أن لوبي بلان كان له في هذا المضمار أسلاف عديدون. ففيزو و مينيه و أوغستين تيري و تو كفيل^(١) قد اعترفوا جميعاً بسيطرة العامل الاقتصادي . وبذلك يكون جميع هؤلاء المؤرخين ماديين اقتصاديين وفي أيامنا ، إنـت . روجرس الذي سبق ذكره يظهر هو أيضاً ككدي اقتصادي مقتبس في كتابه «التحليل الاقتصادي للتاريخ» حيث اعترف هو أيضاً بـ«العامل الاقتصادي». ولا ينبع عن ذلك طبعاً ان أفكارـت . روجرس مماثلة لـأفكارـلوبي بلان . قد كانت وجهـة نظر روجرس وجهـة نظر الاقتصاد البرجوازي ، بينما كان لوبي بلان ، في وقت ما ، أحد عباقـل الاشتراكية النـيالية ولو سأـلم روجرس عن رأـيه في النظام الاقتصادي البرجوازي ، لا جـابـكم أنـهـذا النظام يـركـز على المـصـائـص الجـوهـرـية في الطـبـيـعـة الـإـنسـانـيـة ، وـأنـ تـارـيخـ قـيـامـهـ هوـ بالـتـالـيـ تـارـيخـ الـازـالـةـ التـدـريـجـيـةـ للـعـقـبـاتـ أـتـيـ كـانـ تـعـقـبـ تـجـبـلـ المـصـائـصـ المـذـكـورـةـ ، أوـ حـتـىـ تـحـولـ دـوـنـهاـ .

أما لوبي بلان فيعلن لكم أنـ الرـأسـمـاـلـيـةـ هيـ ذاتـهاـ أحـدـىـ العـقـبـاتـ التيـ أـقـامـهاـ البـلـجـيـلـ وـالـعـنـفـ وـالـقـيـقـةـ تـيـقـنـ اـشـاءـ نـظـامـ اـقـصـادـيـ يـتـائـيـ فيـ الـاـخـيـرـ حـقاـ معـ الطـبـيـعـةـ الـإـنسـانـيـةـ . تـرـىـ أنـ الفـرقـ أـسـاسـيـ . فـمـنـ هـنـاـ كـانـ أـقـرـبـ إـلـىـ الصـوابـ ؟ـ فيـ الحـقـيـقـةـ . نـسـقـدـ آنـهـاـ كـانـ تـقـرـيـباـ عـلـىـ بـدـ وـاحـدـ مـنـهـ . وـلـكـنـاـ لـاـ زـرـمـ وـلـاـ شـتـطـيـعـ هـنـاـ التـوقـفـ عـنـ هـذـهـ المـسـأـلـةـ . إـنـ مـاـ يـهـمـنـاـ فـيـ الـوـقـتـ الـحـاضـرـ هوـ غـيـرـ ذـلـكـ تـامـاـ . وـرـجـوـ أـنـ يـلـاحـظـ القـارـيـ . أـنـ الـعـالـمـ الـإـقـصـادـيـ الـمـيـطـرـ فـيـ الـحـيـاةـ الـاجـتـاعـيـهـ هوـ حـسـبـ رـأـيـ لوـبـيـ بلـانـ وـ روـجـرـسـ ، (إـذـاـ استـعـمـلـنـاـ تـقـرـيـباـ رـياـضـيـاـ)ـ تـابـعـ الـطـبـيـعـةـ الـإـنسـانـيـةـ ، وـقـبـلـ كـلـ شـيـ لـلـذـكـاءـ وـالـمـسـارـفـ الـإـنسـانـيـةـ . وـيـنـبـيـ لـنـأـنـ تـقـولـ الشـيـ نـفـسـهـ عـنـ

١ - غـيـرـ ، مـيـنـيـ ، تـيـرـيـ ، توـكـنـيلـ : مؤـرـخـونـ بـرـجـواـزـيونـ فـرـنـسيـونـ ، عـاشـواـ فـيـ عـدـ «ـعـودـةـ الـمـلـكـيـةـ»ـ . رـاجـعـ هـذـاـ الكـتابـ صـ ٣٠ـ

مؤرخي عهد «عودة الملكية» الفرنسيين الذين ذكرناهم . وكيف نصف المفهوم الذي يكونه عن التاريخ أو تلك الذين، مع تأكيدم بأن العامل الاقتصادي يسيطر على الحياة الاجتماعية ، هم مقتعمون بأن هذا العاملـ أي اقتصاد المجتمعـ هو بدوره ثمرة المعارف والمفاهيم الإنسانية ؟ لا يمكننا أن نصف هذا المفهوم إلا بالثنائية . هكذا فالمادية الاقتصادية لاتنفي ، ب مجرد كونها مادية اقتصادية ، المثالية التاريخية . أو بالآخرى ، لمراجعة دقة تامة ، بدلاً من أن نقول : لعلما لم تكون حتى الآن ، في معظم الاحيان الا شكلاً من اشكال المثالية . ويتبين لنا من هنا لماذا يرفض رجال من نوع أنطونيو لا بريولا تسمية ماديان اقتصاديـن . ذلك لأنهم ماديون منسجمون ولأن مفهومهم للتاريخ هـ . وعكس المثالـيه التاريخـية تماماً

نظريّة العوامل

قد يقول لنا السيد كودرین^(١) : «إنكم على غرار أنبياء عديدين ، تتجوزون إلى معتقدات غريبة وتلاعبون بالألفاظ وتشرون الغبار على العيون ويتلئمون السيف . فتحولون المتألين إلى ماديين اقتصاديين . ولكن في هذه الحال ، ماذا يراد حسب رأيك ، بالماديين الحقيقين والنسجيين ؟ هل ينتهيون فكراً تسلط العامل الاقتصادي ؟ هل يقررون بأنّ ممّة عوامل أخرى تدخل في التاريخ إلى جانب هذا العامل ، وأنه من البشّأن أن ننسى لاكتشاف العامل المسيطر ؟ إذا كان الماديون الحقيقيون والنسجيون لا يعيّلون فعلاً إلى ادخال العامل الاقتصادي في كل شاردة فهذا أمر يليّج صدورنا » .

جوابنا إلى السيد كودرین أن الماديين الحقيقين والنسجيين لا يعيّلون إلى ادخال العامل الاقتصادي في كل شاردة ، وإن السؤال نفسه «ما هو العامل المسيطر في الحياة الاجتماعية ؟» ييدو لهم على كل حال مطروحاً بشكل سيء . ولكننا نتعجب للسيد كودرین . أن لا يتبع قبل الأوان ! . فالماديون الحقيقيون والنسجيون لم يصلوا إلى هذه القناعة تحت تأثير السادة الشعبيين والذاتيين ، ولا يسعهم إلا أن يهزّوا من الاعتراضات التي يوجهها هؤلاء إلى فكرة سيطرة العامل الاقتصادي .

١ - كودرین : أحد المفكرين «الشعبيين» .
— المترجم —

هذا فضلاً عن اعتراضات السادة الشعبين والذاقين تأتي بعد أوانها . فنذكر من هيغل ، كان واضحًا أن السؤال عن العامل المسيطر في الحياة الاجتماعية سؤال في غير محله . والمطالبة المفتعلة كانت تدقق حتى امكانية طرح استلة من هذا النوع . فكم بالآخر المادية الديبلوماسية المعاصرة امتد صدور كتاب «قد الانتقاد التقدي»^(١) وخاصة الكتاب الذائع الصيت «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»^(٢) «لما يستطيع المحاكمة حول الاهمية النسبية التي تسود مختلف المؤامل التاريخية - الاجتماعية سوى المخلفين في مجال النظرية» . وبما ان هذا القول لن يدهش السيد كودرين وحده فاني أبادر الى شرحه .

ماذا يقصد بالعوامل التاريخية - الاجتماعية ؟ وكيف تكون فكرة الناس عنها ؟

اليم مثل . يريد الاخوان غرا كوس^(٣) ان يضعوا حدًا لاحتياط الامبراطورية من قبل اثرياء روما ، هذا الاحتياط المشؤوم بالنسبة لروما . ويقاومها

١ - «قد الانتقاد التقدي» او «المائة المقبسه» مؤلف ماركس والجليس صدر في سنة ١٨٤٥ و فيه يصنفي ماركس وأغيليس حساب الميالدين اليساريين ويضعان اسس المنهج الجديد .
— المترجم —

٢ - «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» : مؤلف ماركس صدر عام ١٨٥٩ وفيه قد تعرّض موجز لمبادئ المادية التاريخية ذاتي الصيت ، وراجع هذا الكتاب من ٤٦ - ٤٧ .
— المترجم —

٣ - غرا كوس : الشقيقان تيبريوس (قتل في سنة ٣٢ ق.م.) وكابوس (قتل في سنة ١٢١ ق.م.) . ولهم من ام زعاء روما ، حاولا ان يضعوا حدًا لبعض الاستقرارية الرومانية التي استولت على القسم الاكبر من اراضي الفتح .
— المترجم —

هؤلاء الآثرياء، فينبدأ الصراع ، ويسعى فيه كل من الفريقين إلى تحقيق هدفه .
 وإذا أردت أن أصف هذا الصراع ، يمكنني أن أظهره كصراع بين الأهواء
 الإنسانية . ف تكون الأهواء «عوامل» في تاريخ روما الداخلي . غير أن الآخرين
 غراًكوس وخصومها قد استخدموه في هذا الصراع الوسائل التي كان القانون
 العام الروماني يوفرها لهم . وبالطبع سأخذ هذه الوسائل في حسابي ، الذي عرض
 التقنية ، فيظهر القانون العام الروماني هو أيضاً ، كـ شامل لتطور الجمهورية
 الرومانية الداخلية . ومن جهة أخرى ، كانت خصوم غراًكوس مصالح مادية
 تدفعهم إلى إبقاء هذه التجاوزات المميكية الجذور، بينما كان لانصار غراًكوس من
 جهتهم مصلحة مادية تدفعهم إلى القاء هذه التجاوزات . سوف أنوه بهذه الناحية
 فيظهر الصراع الذي أصفه كصراع بين مصالح مادية أي كتضال بين الطبقات ،
 كتضال يقوم به القراء ضد الآثرياء . هذا هو العامل الثالث الاجدر بالاهتمام ،
 العامل الاقتصادي الشهير . وإذا توفر لديك الوقت ، يمكنك أنها القارئ «المزبر»
 إن تذكر ما طلب لك التفكير لكي تحدد ما هو العامل الذي تسلط على سائر
 العوامل الأخرى في تطور روما الداخلي، وستجد في عرضي ما يكفي من المعلومات
 لإثبات رأيك في هذا الصدد ، مما كان هذا الرأي .

أما أنا فلن أخرج الآن من دوري كراو عادي بسيط ولن أختمس لموضوع
 العوامل واهبها المقارنة لأنها قط ويكتفي باعتباري راوياً ان أصف الموارد
 بما يمكن من الصواب والحقيقة . ويتربّ على ، تحقيقاً لهذا الفرض ، ان أقيم بينها
 بعض الترابط ، ولو كان خارجياً ، وان أرتبها حسب نظرية ما ، وعندما أتكلم
 عن الأهواء التي كانت تثير الفريقين المتنازعين أو عن التنظيم السياسي الذي كان
 يسود روما في ذلك الحين ، أو أخيراً عن تفاوت التدوينات التي كان يحكمها ، فذلك

لكي احصل حديثي بطاعم التلامم والجيوية. حتى إذا ما بلغت هذا المدى أكون قد ارضيت نفسي تماماً، واترك للفلاسفة بهذه مهمة تقرير ما إذا كانت الاهواء تسيطر على الاقتصاد، أو الاقتصاد على الاهواء، أو أخيراً إذا لم يكن هناك اي عامل مسيطر، يعني ان كل عامل مسيطر، يتبع القاعدة الذهبية الفائلة: عش ودع الآخرين يعيشون .

هذا إذا لم اخرج من دوري كراو بسيط لايهم دقائق الامور . ولكن اذا تخلت عن هذا الدور ، إذا شرعت في «فلسفه» الحوادث التي وصفتها ؟ عندئذ سوف لا يمكنني الاكتفاء بلامح خارجي صرف للحوادث ، بل سأريد كشف اسبابها العميقة، وهذه العوامل تقسهاـ الاهواء البشرية والحقوق العامة والاقتصاد التي شددت عليها باديـ الامر وابرزتها بما يكاد يكون غريزة الفنان ، ستتباس في نظرى اميه جديدة هائلة . ستظهر لي بالضييق كأنها تلك الاسباب العميقة التي كتبت تحت عنها ، تلك «القوى الخفية» التي تسر الحوادث . وبذلك أكون قد ابدع نظرية العوامل .

ولا بد من ظهور هذه النظرية، بشكل من الاشكال ، خينا لاقتصر المتمون بالحوادث الاجتماعية على النظر اليها ووصفها ، بل يبحثون عن الصلة التي تربطها .

وعدا ذلك ، فنظرية العوامل تتطور وتشوه بصورة موازية لتقسيم العمل في العلوم الاجتماعية . وبالحقيقة ، ان كل هذه العلومـ الاخلاق والسياسة والحقوق والاقتصاد السياسي الخ ...ـ تناول موضوعاً واحداً متهماًـ هو نشاط الانسان الاجتماعي . ولكن كل منها يدرس هذا النشاط من وجهة نظره الخاصةـ لو كان الامر متوكلاً للسيد ميخائيلوفسكي لقال ان لكل منها « وتره » . وكل من هذه « الاوتار » يمكن اعتباره عاملـ من عوامل التطور الاجتماعي . فيمكثنا اليوم ان

غير عدداً من الموامل يساوي عدد «مواد البحث» في العلوم الاجتماعية .
وبعد ، تأمل من القارئ ، أن يفهم ماذا يقصد بالمواءل التاريخية - الاجتماعية ،
وكيف تكون فكرة الناس عنها . ان العامل التاريخي الاجتماعي هو «مفهوم
محدد» ، وفكرة الناس عنه هي نتيجة عمل تجربة . وبالتجربة ، تبدو لنا مختلف
ظواهر المركب الاجتماعي كأنها مقولات مترابطة . بينما تحول في ذهتنا مختلف
ظواهر وألوان نشاط الإنسان الاجتماعي - الأخلاق ، الحقوق ، الاشكال
الاقتصادية ، الخ . . . الى قوى خاصة تبدو كأنها تولد وتكيف هذا النشاط ،
أي كأنها اسبابه الاخيرة .

ومع ظهور نظرية الماءل ، فالنقاش يبدأ حول السؤال التالي :
ما هو العامل الذي يجب اعتباره مسيطرآ .

المفهوم العلمي للمجتمع

ان العوامل يتفاعل بعضها مع البعض الآخر : كل منها يؤثر فيسائر العوامل الأخرى ، وتؤثر هي فيه ، فيكون لدينا شبكة من التأثيرات المتبادلة ، من الأفعال وردود الفعل هي على درجة من التعقيد تبعث الدوار في ذهن كل من يبغى تفسير سير التطور الاجتماعي ، وتجعله يشعر شعوراً لا يقاوم بال الحاجة الى خيط موجه يساعدته على الخروج من هذه المأهنة . وإذا اقتنع بحكم التجربة المرء ، بأن وجهة نظر التفاعل المتبادل لا تقوده الا الى الدوار ، فهو يبحث عن وجهة نظر أخرى ، رغبة منه في تبسيط مهمته . ويساءل عما اذا لم يكن احد العوامل التاريخية - الاجتماعية السبب الاول الاساسي لكل العوامل الأخرى . حتى اذا ما استطاع حل هذه المشكلة بالإيجاب أصبحت مهمته غالية في البساطة . ولنفترض مثلا انه اقتنع بأن جميع العلاقات الاجتماعية ونشوءها وتطورها في كل بلد من البلدان ينبع لشروط سير التطور الفكري في هذا البلد ، ذلك التطور الذي يتوقف بيده على صفات الطبيعة الإنسانية (تلك هي وجهة نظر التالية) .منذ هذه اللحظة يتيسر عليه ان يخلت من الحلقة المفرغة ، حلقة الفعل المتبادل ، ليبني نظرية للتطور الاجتماعي تكون على درجة ما من التلامم والانسجام . ولله يرى ، لدى متابعته للبحث ، انه قد سار في طريق شال ، وان تطور البشر

الفكري لا يمكن اعتباره السبب الأول للحركة الاجتماعية في جملتها .

ولكنه سيلاحظ بلا شك ، لدى ادراكه ان اقتناه الموقت بسيطرة
العامل الفكري قد افاده رغم شيء ، اذ لو لا هذا الاقتناع لما تجاوز النقطة الميتة ،
نقطة الفعل المتبادل ، ولما قدم خطوة واحدة في فهم الواقع الاجتماعي .

لقد كان لنظريّة العوامل فائدتها بالنسبة للعلم.

ـ ان الدراسة المفصلة للعوامل التاريخية - الاجتماعية قد افادت ، كما تفيد اية دراسة « تمرينية » أخرى لا تتخطى الحركة الظاهرة للاشياء في تحسين ادوات الملاحظة ، كما ساعدتنا على ان نكتشف ، في نفس الواقع الذي جردت بصورة اصطناعية ، احجار الارتكاز التي تربطها بالمركب الاجتماعي » .

بالنسبة لكل من يريد احياء اي جزء من ماضي الانسانية ، لاغنى اليوم عن الالام بالعلوم الاجتماعية المتخصصة ، فهل يمكن للتاريخ ان يتقدم كثيراً بدون الفيولوجيا^(١) ؟ والباحثون في الشؤون الرومانية الضيقو الافق الذين يسترون

١ - الفيلولوجيا : علم الآداب الجمبلة وبشكل عام دراسة الحياة الثقافية والفنية يقصد
بها. أحياناً علم اللغات . - المترجم -

الحقوق الرومانية من إيجاء العقل ، ألم يقدموا خدمات جمة الى العلم ؟
 ولتن كانت نظرية العوامل مشروعة ومفيدة في حينها ، الا انه لا تصدق
 اليوم أمام النقد . فهي تجزئ « نشاط الانسان الاجتماعي وتحول مظاهر والوان
 هذا النشاط الى قوى خاصة تبين في رأيها حركة المجتمع التاريخية . وقد لعبت
 هذه النظرية في تاريخ العلوم الاجتماعية دوراً مائلاً للدور الذي لعبته نظرية
 القوى الفيزيائية المميزة في العلوم الطبيعية . لقد أدى تقدم هذه العلوم الى نظرية
 وحدة هذه القوى ، أي الى النظرية الحديثة للقدرة . كذلك تمحض على تقدم العلوم
 الاجتماعية ان يعود الى ابدال نظرية العوامل التي كانت مجرد التحليل الاجتماعي
 بنحوه توكيبي شامل للحياة الاجتماعية .

ليس المفهوم التركيبى للحياة الاجتماعية خاصاً بالادية الديالكتية المعاصرة ،
 بل انتابنجلمه عند هيغل الذي كان يتلوخى ايمجاد تفسير علمي لسير التطور
 التاريخي - الاجتماعي في جملته ، اي بما فيه جميع مظاهر والوان نشاط الانسان
 الاجتماعي ، التي تبدو عوامل مميزة لمن يفكرون في عالم المجردات . ولكن هيغل
 « المثالى المطلق » ، يرى ان نشاط الانسان الاجتماعي انساً تفسره صفات الفكر
 الكوئي . ومنذ تعطى هذه الصفات ، يعطي تاريخ الإنسانية « بذاته » ، كما تعطى
 نتائجه الأخيرة . لقى كان مفهوم هيغل التركيبى غائباً^(١) . اما المادية الديالكتية
 الحديثة فقد أبعدت الناتية نهائياً عن العلوم الاجتماعية .

لقد بنت المادية الديالكتية انه ، اذا كان الناس يصنفون تاريخهم ، فذلك
 ليس لاباع سبيل للتقدم ورسم لهم بصورة مسبقة ، وليس لأنهم ملزمون بالخضوع

- (١) - الثانية او التفكير الثاني téléologie : تفكير مثالي يرى ان لكل ظاهرة طبيعية او انسانية ، هدفاً او غاية . — المترجم —

لقوانين أي تطور مجرد (ميافيزيائي) ، كما يقول لا بريولا . ان البشر يصنون تاريخهم في سعيهم وراء حاجاتهم ، وواجب العلم انه يشرح لنا كيف تؤثر مختلف وسائل تلبية هذه الحاجات على علاقات الناس الاجتماعية وعلى نشاطهم الروحي . اما وسائل تلبية حاجات الانسان الاجتماعي ، والى حد بعيد هذه الحاجات نفسها تحددها خصائص الادوات التي تساعد الانسان على اخضاع الطبيعة قليلاً او كثيراً ، اي بتغيير آخر ، حالة قواه المتوجهة . ولكن تبدل هام في حالة هذه القوى انكساره على علاقات الناس الاجتماعية ، وبالتالي على علاقتهم الاقتصادية أيضاً . لقد كانت العلاقات الاقتصادية ، في نظر الماليين من جمیع الصنوف والانواع ، تابعة للطبيعة الإنسانية ، أما الماديون الديالكتيون فيرون ان هذه العلاقات تابعة لقوى المجتمع المتوجهة .

وينجم عن ذلك انه . اذا ما اعتقد الماديون الديالكتيون ان من حقهم التحدث عن عوامل التطور الاجتماعي لنفرض آخر غير انتقاد هذه الاوهام البالية ، وجب عليهم قبل كل شيء ان ينجزوا الماديين « الاقتصاديين » الى مدى تعرض علمهم « السيطر » الى التغيير ؛ والماديون الحديثون لا يعرّفون نظاماً اقتصادياً يكون وحده مطابقاً للطبيعة الإنسانية ، بينما تكون سائر اشكال التنظيم الاقتصادي الاخرى نتيجة عنف كبير او صغير الحق بالطبيعة الإنسانية ، بل لم يؤكدون ان كل نظام اقتصادي يطابق حالة هذه القوى المتوجهة في وقت معين ابداً يطابق الطبيعة الإنسانية ايضاً . وبالعكس ، فان نظاماً اقتصادياً ما يبدأ في مناقضة حاجات هذه الطبيعة نفسها عندما يدخل في تناقض مع حالة القوى المتوجهة ، بحيث ان العامل « السيطر » هو نفسه خاضع « لعامل » آخر . ولكن في هذه الحال ، لا يجوز اعتباره « مسيطرآ » .

وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فمن الواضح أن ثمة هوة تفصل بين الماديين الدياليكتيين وبين من يمكن تسميتهم بحق ، الماديين الاقتصاديين . قال اي اتجاه ينتمي او اثلك الاتباع المزعجون لعلم مزعج . او اثلك الاتباع الذين كانوا يتعرضون منذ أمد قصير للهجوم الذي شنه عليهم السادة كارييف وimitatiofiski وكريشكو وغيرهم من حلة الفهم والمعروفة ، بمحاجة ان لم يكن بنجاح . كان الاتباع قد بنوا تماماً ، على ما أعتقد ، وجهة نظر المادية الديالية . فلماذا كان السادة كارييف وimitatiofiski وكريشكو وغيرهم من ذوي الفهم والمعروفة ينسبون لهم افكار الماديين الاقتصاديين ، ويتزعمونهم لأنهم ، على حد زعم هؤلاء السادة ، كانوا يمزون العامل الاقتصادي دوراً مبارزاً فيه ؟ ففترض انهم « اذا ما سلكوا هذا السلوك ، فلأن تفنيد حجج الماديين الاقتصاديين الطبي الذكر اسهل من تفنيد حجج الماديين الدياليكتيين . ولتكنه يمكننا ان فترض ايضاً ان العلماء خصوم « الاتباع » قد اساوا لهم افكارهم . هذا الافتراض هو أقرب للعقل .

رب معارض يقول : ان « الاتباع » قد سموا انفسهم احياناً « ماديين اقتصاديين » ، وان عبارة « المادية الاقتصادية » قد وردت للمرة الاولى على لسان أحد الاتباع الفرنسيين (١) . أجل ، ولكن لم يحدث ابداً ان علق « الاتباع - الفرنسيون أو الروس - على عبارة « المادية الاقتصادية » . الفكرة التي يطلقها عليها الشعبيون والذائيون في روسيا . ويكتفي ان نذكر ان السيد ميخائيلوفسكي يسمي لوبي بلان والسيد جوكوفسكي « ماديين اقتصاديين » أسوة بأنصار المفهوم المادي للتاريخ المعاصرین . ومن الحال دفع بلبلة الافكار الى آبعد من هذا الحد .

— اشارة الى بول لا فارغ الماركسي الفرنسي الشير الذي اصدر كتاباً يعنوان « مادية كارل ماكن الاقتصادية » ، باريس ١٨٤٤ . — المترجم —

موضوع العام التاريخي

إن المادية الديالكتيكية^(١) ، حين ابعدت كل تفكير عائلي عن العلم الاجتماعية وفسرت نشاط الإنسان الاجتماعي بمحاجاته وبالوسائل والطرق التي يستخدمها في وقت معين لتلبية هذه الحاجات ، قد محضت هذه العلوم للمرة الأولى طابع « الدقة » ، هذا الطابع الذي كانت علوم الطبيعة تتبعج به أمامها كثير من الأحيان . ويعكّرنا القول أن علم المجتمع يصبح هو نفسه علمًا طبيعياً . ويقول لا بريولا بمعنى « ان مذهبنا يجعل التاريخ علمًا طبيعياً » .

وهذا لا يعني مطلقاً أن ميدان البيولوجيا لا يتميز في نظره عن ميدان العلوم الاجتماعية . فلابريولا هو خصم نشيط لـ « الداروينية السياسية والاجتماعية »^(٢) التي « اجتاحت كالوباء عقل عدد من المفكرين وخاصة من خطباء علم الاجتماع »

١) يستخدم لا بريولا عبارة « المادية التاريخية » التي اختبأها عن العمل . - المؤلف -

٢) الداروينية السياسية والاجتماعية : اكتشف العالم البيولوجي الكبير دارون ان تطور الانواع الباتية والحيوانية ياتح عن تنازع الغاء . وقد عمل فريق من المفكري الجيدين على نقل نكرة تنازع البقاء إلى ميدان الظواهر الإنسانية الاجتماعية . وعرف بذيهم باسم « الداروينية السياسية والاجتماعية » . وجوهر هذه النظرية الرجوية أنها تلقى مسوؤلية المزروع والبطالة والفقر على الطبيعة ، في حين أن هذه المصائب ترجع إلى أسباب تاريخية - اجتماعية . - المترجم -

والتي أصبحت « موضة » فاقت على لغة رجال السياسة .

لاشك ان الانسان حيوان تربطه صلات القربي بحيوانات اخرى ، وليس
البيئة كائناً ممتازاً من حيث اصله . إن فيسيولوجيا الكائن الانساني ليست الا حالة
خاصة من الفيسيولوجيا العامة . وكل شيء ، فالانسان خاضع خصائصاً ناتمة تأثير
البيئة الطبيعية المحيطة به والتي لم تتأثر بعد بنشاطه التحويلي ، وذلك أسوة بسائر
الحيوانات . وقد اضطر في نضاله لاجل الوجود الى التكيف مع هذه البيئة .
ويرى لا بريولا ان الاجناس (العروق) هي نتيجة هذا التلاويم - المباشـو - مع
البيئة الطبيعية ، بقدر ما تباين هذه العروق بعلامات مادية فارقة - العرق الابيض
والاسود والاصفر - وهي لا تؤافـك تشكيلات تاريخية - اجتماعية ثانية ، اي اثنا
وشعبـاً . إن الفرـزـة الاجتماعية الـبـداـئـية والـبـذـورـ الـاـولـى لـاـصـطـفـاءـ الجـنـيـ نـاتـجـةـ
هي ايضاً عن التكيف مع البيئة الطبيعية خلال النضال من اجل الوجود .

ولكنه لا يسعنا الاعتماد الا على التخمينات فيما يتعلق بـ « الانسان البدائي »
فالبشر الذين يسكنون الارض حالياً والذين لا يحظهم في الماضي باحثون جديرون
بالثقة هم بيدون جداً عن الوقت الذي توقفت فيه الحياة الحيوانية بمعنى الكلمة
الاصلي ، بالنسبة الى الانسان . هكذا ، قبائل ابروكوا في اميركا الشماليـة -
و نظام الامومة^(١) الذي تعيش فيه هذه القبائل والذي درسه ووصفه مورغان^(٢)

١) نظام الامومة : نظام تمارس فيه النساء سلطـةـ مـيـطـرـةـ فيـ العـائـلـةـ وـ الـقـيـلـةـ . وـ هوـ مرـحـلةـ
قـيـمـيـةـ منـ مـراـجـلـ التـطـوـرـ الـاجـتـمـاعـيـ . - المـتـرـجمـ .

٢) مورغان (١٨٠٨ - ١٨٨١) : عالم اثنوغرافي اميركي ، احد رواد التاريخ الطليـ
للـجـمـعـاتـ الـبـداـئـيةـ . وقد يـوصـيـ بـكتـابـهـ «ـ اـصـلـ الـبـائـلـةـ وـ الـمـلـكـيـةـ الـخـاصـةـ وـ الـدـوـلـةـ »ـ مستـدـاعـلـ تـحـليلـ
مـؤـلـفاتـ مـورـغانـ قـلـيلاـ اـنتـقادـياـ . - المـتـرـجمـ .

بلغت نسبةً من حلة مقدمةً جداً في التطور الاجتماعي والأوستراليون^(١) الحاليون
انفسهم لا يملكون لها وحسب (واللغة هي الشرط والإادة والسبب والنتيجة في
كل حياة اجتماعية) ولا يعرفون استخدام النار وحسب، بل هم يعيشون ايضاً
في محيطات، في ظل نظام معين، ولم يعترفوا بهم ومؤسساتهم. والقبيلة الاوسترالية
لها ارضها واساليها في الصيد ووسائلها في الدفاع والهجوم، وهي تستعمل اوعية
لحفظ المؤن، وتمارس بعض اعمال تزيين الجسد، وبكلمة مقتضبة، ان الاوسترالي،
رغم تأخره، يعيش في بيئة اصطناعية، هي بيئة ابتدائية بلاشك، يتكيف معها
منذ طفولته. وهذه البيئة الاصطناعية - البيئة الاجتماعية - هي الشرط الضروري
لحصول تقدم جديد. وإن درجة تقدمها هي التي تعطي قياس درجة هيجية او
بربرية القبيلة.

إن هذا التشكيل الاجتماعي الاول يطابق ما يسمى بهد ما قبل تاريخ
الإنسانية. أما بداية الحياة التاريخية نفسها ففترض بيئه اصطناعية أكثر تقدماً
وسلطنة أكبر بكثير على رأسها الإنسان على الطبيعة. والعلاقات الشديدة التعقيد في
قلب المجتمعات التي تدخل في طريق التقدم التاريخي لاتخضع مطلقاً لشروط تأثير
البيئة الطبيعية المباشرة. أنها تفترض احتراز بعض أدوات العمل وتتأهيل عدد
من الأنواع الحيوانية واستخراج بعض المعادن... أن وسائل الانتاج واساليه
هذه قد تبدلت على صور شديدة الاختلاف تبعاً للظروف؛ فهي قد تقدمت تارة،
وتوقفت عن التقدم تارة أخرى، بل أنها تراجعت في بعض الاحيان؛ ولكن هذه
التعديلات لم ترجع البشر في يوم ما إلى حياة حيوانية صرفة اي إلى حياة خاصة
لتأثير البيئة الطبيعية بصورة مباشرة.

(١) يقصد بالأوستراليين في علم المجتمعات البدائية سكان اوستراليا الاصليين - المترجم -

«أن المهد الاول والرئيسي للعلم التاريخي هو بالتالي تحديد
وتحري الارض الاصطناعية واصطلاحها وتركيبها وتبدلاتها وتحولاتها.
والقول ان ذلك كله ليس الا جزءاً من الطبيعة وامتداداً لها هو
قول لم يبق له اي معنى ، بسبب طابعه المفرط في التجريد والشمول».

ويشجب لابريولا ، فضلاً عن «الداروينية السياسية والاجتماعية» ، المحاولات
التي يقوم بها بعض «المؤات الظرفاء» ، لاحراق المفهوم المادي للتاريخ بنظرية انتظار
العامة التي لم تعد ، بالنسبة الى الكبارين ، الا تورية ميتافيزيائية ، حسب تعبير
لابريولا ، وهو تعبير قال ولكته سيديد . كذلك يسخر ايضاً من التسرع الساذج
الذى يدعيه «المؤاة الظرفاء» في وضع المفهوم المادي للتاريخ في كنف فلسفة
اوغست كونت او سبنسر^(١) . كذلك على حد تعبيره ، يعني السعي لاظهار «الدّ»
اعداتنا بمنظور الخلفاء» وهذه الملاحظة بقصد المؤاة موجهة بلا شك الى ازريكو
فرني الذي ألف كتاباً سطحياً عنوانه «سبنسن ، داروين وماركس» ، ونقل
الى الفرنسيّة تحت عنوان «الاشتراكية والعلم الوضعي»

(١) اوغست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) : فيلسوف برجوازي فرنسي . مؤسس المنصب الوضعي
وام ماي هذه الفلسفة قولان الملا يهتم بمعرفة «كـ الاشيـا»، وعـلـاقـاتـ السـبـيـةـ، بلـيـقـتـصـرـ عـلـ درـاسـةـ الـظـاهـرـ
وـاـكـثـافـ الـقـوـانـينـ . وبالـرـغمـ مـنـ ظـهـورـهـ «ـالـعلـمـ» وــالـحـلـيـثـ، وــادـعـائـهـ بــاـنـهـ ضـجـجـيـعـ اـنـوـاعـ
ـ(ـالـمـيـتاـفـيـزـيـاـ)،ـ الـمـاتـالـيـةـ وــالـمـادـيـةـ(!)ـ،ـ فـاـنـ هـذـهـ الـفـلـسـفـةـ تـحـدـمـ قـيـمـةـ الـمـلـوـ وــتـخـدـمـ اـغـرـاضـ الـمـاثـالـيـةـ .ـ المـرـجـمــ
ـ سـبـنـسـرـ (ـ١٨٢٠ـ - ١٩٠٣ـ) :ـ فـيـلـسـوـفـ انـكـلـيـزـيـ صـاحـبـ نـظـرـيـةـ الـظـلـوـ الـبرـجـواـزـيـةـ،ـ وـهيـ نـظـرـيـةـ
ـمـيـتاـفـيـزـيـاـتـيـةـ تـجـهـيلـ الـتـنـاقـصـ وــالـصـرـاعـ،ـ كـاـتـجـهـيلـ الـاـنـقـلـابـاتـ وــاـكـانـيـةـ حـوـثـ الرـدـتـ الـراـجـعـيـةـ .ـ المـرـجـمــ

البرقتصاد . السيموكولوجيا الاجتماعية .

هكذا ، إن البشر يصنعون تاريخهم بضمهم لثانية حاجاتهم . وهذه الحاجات تولد في الأصل من الطبيعة ، ولكنها فيما بعد تحول كثيراً في كيّها و نوعيتها ، وذلك بسبب خصائص البيئة الاصطناعية و تكيف القوى المتّجة التي يملكونها البشر سائر علاقاتهم الاجتماعية . وتحدد حالة القوى المتّجة ، قبل كل شيء ، العلاقات التي تنشأ بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية . أي بتعديل آخر العلاقات الاقتصادية . وهذه العلاقات تولد بشكل طبيعي المصالح التي تجد تعبيراً عنها في الحقوق . يقول لا بريولا :

إن كل قاعدة حقيقة كانت ولا زالت الدافع القضائي عن

مصلحة معينة » .

إن تطور القوى المتّجة يولد أنقسام المجتمع إلى طبقات ذات مصالح مختلفة بل ومتنازلة تماماً في كثير من النواحي — ومن النواحي الأساسية — وهذا التنازن بين المصالح يثير التراقيعات والتضارب بين الطبقات الاجتماعية . ويقود هذا التضارب إلى اندلاع التنظيم الشأنوي بالدولة ، التي تؤدي مهمة حماية المصالح السائدة . وعلى أساس العلاقات الاجتماعية التي يكفيها مستوى القوى المتّجة ، تتكون الأخلاق العامة أي الأخلاق التي يسرّ عليها الناس في حياتهم اليومية .

هكذا ، فالحقوق والنظام السياسي والأخلاق لدى شعب ما تُكيف ، بصورة مباشرة ودونها وسيط ، مع العلاقات الاقتصادية الخاصة بها الشعب . وهذه العلاقات نفسها تُكيف ، ولكن بصورة غير مباشرة وعن طريق الوساطة ، كل ناتج الفكر الأخلاق والخيال المبدع الفن ، العلم ، الخ ...

ولفهم تاريخ العلوم او الفنون في بلد معين ، لا تكفي معرفة اقتصاد هذا البلد . بل يجب الانتقال من الاقتصاد الى السكولوجيا الاجتماعية ، لانه ، بدون دراسة هذه السكولوجيا دراسة بقظة وبدون فهمها ، يكون من الحال اعطاء تفسير مادي لتاريخ الابد ولوجيات ، وهذا لا يبني بالطبع ان هناك نفساً جماعية او « روحًا » قومية جماعية تتطور بوجوب قوانينها الخاصة وتتجلى في الحياة الاجتماعية .. « ان هذا الرأي بتصوف محض » ، على حد قول لا بريولا . فالقصد بالسكولوجيا الاجتماعية ، عند الماديين ، ليس سوى الموافض والآفكار التي تسيطر ، في وقت ما في طبقة اجتماعية في بلد معين . وهذه الموافض والآفكار تتبع من العلاقات الاجتماعية . فلا بريولا مقتنع قناعة راسخة بأن اشكال وعي الناس ليست هي التي تحدد اشكال حياتهم الاجتماعية . ولكن متى ابنتت اشكال الوعي الانساني من الحياة الاجتماعية ، فانها تصبح جزءاً لا يتجزأ من التاريخ - ولا يمكن لعلوم التاريخ ان تقتصر على تshireح المجتمع ، بل يجب ان تشمل ، بمجموع الواقع التي يكشفها الاقتصاد الاجتماعي بصورة مباشرة او غير مباشرة ، عما فيها نشاط الخيال . وليس من واقعة تاريخية الا وتجده اصلحاً في اقتصاد المجتمع ، ولكن ليس ايضاً من واقعة تاريخية الا وتبقيها وترافقها وتعقبها حالة من حالات الشعور والوعي . من هنا تنجم الاهمية المئوية التي للسكولوجيا الاجتماعية . فاذا كان اخذناها في حسابنا واجبـاً حتى في تاريخ الحقوق والمؤسسات السياسية ، فبدونها لا يمكننا ان نخطو خطوة واحدة في تاريخ الادب والفن والفلسفة ...

عندما يقول . على سبيل المثال ، ان مؤلفاً ما يترجم بصدق وامانة عن روح عصر النهضة ؟ هذا يعني انه يطابق تماماً الروح السائمة في الطبقات التي كانت تدين بخط الحياة الاجتماعية وما دامت العلاقات الاجتماعية بدون تغيير ، فالسيكولوجيا الاجتماعية لا تغير هي ايضاً . والناس يألفون ما يوجد من معتقدات وأفكار وطرق فكير ووسائل تلبية حاجتهم البدنية ، ولكن ، اذا أحدث نحو القوى المنتسبة تبدلات ذات شأن ما في البنيان الاقتصادي للمجتمع ، وبالتالي في علاقات الطبقات الاجتماعية ، فان سيكولوجيا هذه الطبقات تبدل بدورها وتبدل معها «روح العصر» و«طبيعة الامة» ، وهذا التغير يتجل في ظهور المعتقدات الدينية الجديدة او الافكار الفلسفية الجديدة او الاتجاهات الفنية والمحاجات البدنية الجديدة .

ويلاحظ لا بريولا ان بقاء افكار واتجاهات خلفها الاجداد ولا تستمر الا بحكم التقليد يلعب دوراً بالغاً في الایديولوجيات ، حيث نشاهد من جهة اخرى تأثير الطبيعة . ان البيئة الاصطناعية ، كارأينا ، تبدل بشكل رائع تأثير الطبيعة على الانسان الاجتماعي . فينفو هذا التأثير غير مباشر بس ان كان مباشراً ، ولكنه يظل موجوداً . وفي مزاج كل شعب من الشعوب تبقى بعض الخصائص الناتجة عن تأثير البيئة الطبيعية ، وهي تحول الى حد ما ، ولكنه لا تزول تماماً ، بتكييفها مع البيئة الاجتماعية . وهذه الخصائص في مزاج شعب ما تشكل ما يسمى بالعرق . والعرق يؤثر تأثيراً لا جدال فيه على تاريخ الایديولوجيات . كالفن مثلاً - مما يزيد في صعوبة تفسيرها تفسيراً علمياً .

٢

نشوة الدولة - مفهوم العرق

نشير قبل كل شيء الى الامر الثاني : يرى لا بريولا ان الدولة هي التنظيم الذي يمكن طبقة اجتماعية من ممارسة سيطرتها على طبقة أو عدة طبقات اخرى. هذا صحيح . ولكن هل بإمكاننا القول ان هذا الكلام يتضمن الحقيقة كاملة غير مقتوقة ؟ في دول كالصين ومصر القديمة ، حيث كانت الحياة الحضارية مستحيلة بدون الأشغال الواسعة البالغة غاية التعقيد التي نظمت عجز الإنهار الكبير وفضائلها وامت الرى ، يمكننا ان نفتر نشوء الدولة ، الى حد بعيد ، بالتأثير المباشر لمقتضيات عملية الانتاج الاجتماعية . اجل ، لقد كان التفاوت موجوداً منذ عصور ما قبل التاريخ ، والى حد ما ، في قلب القبائل التي كانت جزءاً من الدولة - وكثيراً ما كانت هذه القبائل تختلف من حيث اصولها العرقية ، وفيما بين هذه القبائل على السواء . ولكن الطبقات السائدة التي تمحجها في تاريخ هذه

البلدان قد احتلت مركزها الاجتماعي البائع درجة مامن الرفعة ، بفضل التنظيم السياسي الذي تولد بالضبط من مقتضيات عملية الاتجاه الاجتماعية . ولا شك ان سيطرة طائفة الكهنة في مصر كان مردها الاهمية الخطيرة التي كانت تعود الى صلوثاتها المالية رغم طابها الابتدائي ، بالنسبة لنظام الزراعة المصرية ^(١) . وفي الغرب ، بما فيه طبأ اليونان ، لا لاحظ ان المطلبات المباشرة لعملية الاتجاه الاجتماعية (التي لم تكن تفترض في هذه البلدان تنظيم اجتماعياً فائق الاتساع) قد اثرت على نشوء الدولة : ولكن هنا ايضاً ينبغي تفسير هذا النشوء ، الى حد بعيد ، بضرورة احداث تقسيم اجتماعي في العمل ، تلك الضرورة الناجمة عن نمو القوى المتتجدة في المجتمع . وبالطبع ، فان هذا الظرف لم يمنع الدولة من ان تكون في الوقت نفسه تنظيماً يضم سلطة اقلية ممتازة على اغلبية مستعبدة في قليل او كثير ^(٢) . ولكن ينبغي الا تغفل هذه الحقيقة ابداً ، اذا اردنا اجتناب المفاهيم الخاطئة والضيقة عن دور الدولة التاريخي .

ولنتنقل الان الى افكار لا بريولا عن تطور الامثلوجيات التاريخي . لقد رأيناها يقول ان هذا التطور يزداد تقييداً بسبب تأثير خصائص العرق ، وبشكل اعم ، بسبب تأثير البيئة الطبيعية على البشر . ورؤوسنا جداً ان المؤلف لم يز من

- ١ — يقول احد ملوك الكلدان : « لقد درست اسرار الانهار في سهل خير البشر ... وجلبت مياهها الى الصحراء ، واملأته بها المخفر الجافة ... ورويت الوديان القاحلة ، ففتحتها الحصب والوترة ، وجعلتها بيت السعادة ». ان هنا الكلام يرسم دور الدولة الشرقية في تنطع عملية الاتجاه الاجتماعية بصورة اميته ، وان كان ذلك بصيغة الاطناب والمالحة — المؤلف —
- ٢ — كلا لا يعنها من تكون احياناً نتيجة استيلاه شعب على آخر . ان دور المفهوم كثير جداً ، ابان تبديل بعض المؤسسات بالخرى . ولكن المفهوم لا يفسر امكانية هذا التبديل ولا نتائجه الاجتماعية . — المؤلف — .

المفید ان يستد رأيه ويوضحه بالامثلة . ولو فعل ، ليس علينا فهمه . ومما كان
 الامر ، فلا يمكننا صراحة قبول هذا الرأي بالشكل الذي ورد فيه .
 ان المهندس المهر الامير كين لا يتمون طبعاً الى البرق الذي تنتهي اليه
 القبائل التي سكنت ، في عصور ما قبل التاريخ ، الارض الاغريق او شواطئه
 البليطيق . وفي كل من هذه المناطق ، تأثر الانسان البدائي ببيئات طبيعية مختلفة
 تماماً . وقد يتوقع المرء ان يرى تنوع التأثيرات هذا في الاعمال الفنية الابتدائية
 التي اتجها سكان هذه المناطق البدائيون . ولكن الامر خلاف ذلك . في سائر
 اجزاء المعمورة على اختلافها ، نجد ان مراحل واحدة في تطور الانسان البدائي
 تطابقها مراحل واحدة في تطور الفن . يوجد في العصر الحجري ، وفن عصر
 الحديد ، ولا يوجد في البرق الابيض والانصاف ، الخ... وان حالة القوى المنتجة
 تظهر حتى في التفاصيل مثلاً ، لانشاهد بادىء الامر في الخزف الا الخطا المستقيم
 او الخطا المكسر : المربات والصلبان والخطوط الموجة الخ... ان الفن البدائي
 يقتبس هذا النوع من التزيين عن حرف هي أكثر بدائية منه : النسيج والتجديل .
 وفي عصر البرونز ، مع شغل المعدن التي تأخذ جميع الاشكال الهندسية ، يظهر
 الخط المنحني في التزيين ، وآخرأ يؤدي تأهيل الحيوانات الى تصويرها وأولاً
 تصوير الحصان (انظر بهذا الخصوص مقدمة كتاب حاولة في تاريخ الفن المؤلف
 فيلهلم لوبيكه ، ترجمة كولر ، باريس - روان ١٨٨٦ - ١٨٨٧) .

في تصوير الانسان ، صحيح ان الخصالص العرقية تؤثر سلطتها على « المثل
 الاعلى للجمال » عند الفنان البدائي . فن المعلوم ان كل عرق ، وخاصة في المراحل
 الاولى للتقدم الاجتماعي ، يعتبر نفسه اجل عرق ، وهو فخور قبل كل شيء بما
 يعيشه عن غيره من البروقي . (انظر دارون : اصل الانسان ، لندن ، ١٨٨٣
 ص ٥٨٢ - ٥٨٥ . ترجمة بارزية ، باريس ١٨٨١) . ولكن أولاً ، ان هذه

الأشخاص في جالية كل عرق - بقدر ما هي ثابتة - لا تستطيع ، بحكم تأثيرها وحده ، ان تغير سير تطور الفن ؛ وهي ثانياً ، لا يبقى إلا خلال مدة من الزمن ، أي في شروط معينة . وعندما تضطر قبيلة من القبائل الى الاعتراف بتفوق قبيلة أخرى أكثر تقدماً منها ، في تخلى عن اعتزازها العرقي وتشرع بتقليد الأذواق الغربية التي كانت تعتبرها حتى ذلك الحين مضحكاً بل مخزية أو شائنة . إن الانسان البدائي في هذا الضمار كالفلاح في المجتمع المتقدم ؛ فالفالح هزاً بادئه الامر من طائع سكان المدينة ولباسهم ، ولكنه فيما بعد ، عندما ترسم ثم تثبت سيطرة المدينة على الريف ، يسعى الى تقليده بقدر ما يستطيع .

وإذا ما انتقلنا الى الشعوب التاريخية ، لاحظ قبل كل شيء انه لا يمكن لا يجوز ان تطبق عليها كل فرق - فتعن لا تنعرف شيئاً واحداً منها يمكن اعتباره عملاً صافياً ، وكل منها ناج خليط عميق ومتآرج طويلاً بين عناصر عرقية متباينة . فكيف السبيل بذلك الى تمجيد أثر العرق على التاريخ الابيولوجي لهذا الشعب أو ذاك ؟ !

قد يجد الوهلة الاولى ان لاشيء أكثر بساطة وأشد صواباً من فكرة أثر تمارسه البيئة الطبيعية على مزاج شعب من الشعوب ، وبالتالي على تطوره الفكري والابدي ، ولكنه يكفي لا يبرر ولا ان يتذكر تاريخ بلاده ليدرك خطأ هذه الفكرة . ان ايطالي اليوم يعيشون في نفس البيئة الطبيعية الذي عاش فيها الرومان القدماء ، ومع ذلك فالفرق كبير يان « مزاج » الذين هزمهم مينيليك (^١) ، ومزاج فاتحي قرطاجنة الاشداء : فإذا ما قررتنا مثلاً تفسير تاريخ الفن الابطالي بعراج الابطالين ، فسرعان ما سنضطر الى التساؤل قلقين عن الاسباب التي جعلت المزاج يتبدل بدوره على هذا النحو العجيب في مختلف المهد و مختلف أجزاء شبه الجزيرة الابطالية .

^١ - مينيليك امير امپراتور الجهة هزم النزرة المستعمر الابطالين سنة ١٨٩٦ وارغمهم على الاعتراف باستقلال بلاده . - المترجم -

مفهوم العرق ومتاجع الشعب

إن مؤلف كتاب « دراسات عن الدور الفوغولي في الأدب الروسي »^(١) يقول في ملاحظة له عن الجزء الأول من « مبادىء الاقتصاد السياسي » لرج. س. ميل :

« لن نقول انه ليس للعرق اي شأن على الاطلاق . فتقدمنا
العلوم الطبيعية والتاريخية لم يبلغ بعد درجة كافية من الدقة في
التحليل ليكوننا اتأكد في معظم الحالات : ان هذا النصر
مفقود تماماً هنا . فمن يعلم ؟ ربما احتوت هذه الريشة الفولاذية
على جزء صغير من معدن البلاتين . لا يمكننا ان نتفق ذلك بثقة
مطلقة . إن الشيء الوحيد الذي نعرفه هو ان التحليل الكيميائي
يكشف في هذه الريشة عن وجود عدد كبير جداً من الجزيئات
التي ليست من معدن البلاتين حتى بما يجعل ان كمية البلاتين التي
قد تكون دالة في تركيبها هي بعديمة الشان . وحتى في حال
وجودها لا يمكن عملياً اخذها في الحسبان .. عملياً ، اعتبروا
هذه الريشة كريشة فولاذية عادية . كذلك في التطبيق العملي ،
لا ينتبهوا الى عرق البشر . اعتبروهم بشرأ وحسب .. »

١ - المقصود : المفتراطي الروسي الكبير تشنديفسكي . راجع هذا الكتابة من ٥٦

وإذا كان شعب من الشعوب يعيش في حالة معينة وليس في غيرها ، فقد يكون المعرقه بعض الأثر في ذلك ، لا يعكست ان تنتي الامر بشقة مطلقة . إن التجييل التارتخني لم يبلغ حتى الآن دقة تامة ؛ رياضية ؛ وبعد هذا التجييل ، تبقى فضلة صغيرة جداً تستلزم وسائل أكثر دقة ، وسائل ليست متوفرة في حالة المراهنة . ولكن هذه البقية عدمة الشأن . فإن أثر الفزوف المستقلة عن الصفات البرقية الطبيعية في تكون الحالة ازاهنة لكل شعب كبير لدرجة لا يبقى معها منه الصفات الطبيعية الخاصة ، في حال وجودها ، الا مكان صغير جداً مكان طفيف بمحري .

لقد تذكرنا هذه السطور عندما قرأتنا آقوال لا بريولا عن تأثير المعرق في تاريخ تطور الإنسانية الروحي . لقد تناول مؤلف « الدواسات عن الدور الغوغولي » تأثير المعرق من الناحية العملية بشكل خاص ، ولكن ينتهي على جميع من يهتمون بحوث نظرية صرفه ان يتذكروا دائماً هذه الآقوال . فالعلوم الاجتماعية ستحرز كسباً كبيراً اذا ما تخلينا عن عاداتنا السيئة في رد كل ما يبدو لنا غير مفهوم في التاريخ الروحي لشعب ما الى المعرق . ربما لعبت الخصائص العرقية دوراً ما في الأمر . ولكن هذا الدور الافتراضي كان بالتأكيد هزيلاً للدرجة يجدر معها ، لصالح أبحاثنا ، أن نعتبره مدعوماً ، وان نرى في الخصائص التي نلحظها في تطور هذا الشعب او ذاك نتائج الشروط التارخية الخاصة بهذا التطور ، وليس نتاج أثر المعرق . غني عن البيان اننا سوف نكون ، في الأحوال عديدة ، عاجزين عن تعين الشروط التي ولدت الخصائص التي تهمنا . ولكن ما ليس عتناول البحث العلمي اليوم قد يصبح عتناوله غداً . والاستجداد بخصوص العرق يعني توقيف البحث بالضبط حيثما يجب استثناؤه . ما هو سبب اختلاف

لأدب تاريخ الشعر الفرنسي عن تاريخ الشعر في المانيا ؟ الجواب في منتهى البساطة : فزاج الشعب الفرنسي لم يسمح بظهور أمثال ليسن وشيل وغوفه . شكرؤا على هذا الشرح الذي أوضح كل شيء !

سوف يقول لا بريولا انه أبد ما يمكن ان يكون المرء عن مثل هذه التفسيرات التي لا تحسن شيئاً ، وسيكون على حق في قوله . فهو بشكل عام يدرك تماماً وهنالك ، ويعلم جيداً كيف ينبغي حل مسائل من هذا النوع ، غير ان اعترافه بأن خصائص العرق تزيد في تقيد تطور الشعب الروحي يعرض قراءة الى الضلال ويدل على استعداده للتساهل حال طريقة التفكير القديمة ، ولو في بعض النقاط الثانية ، الامر الذي يلحقضرر بالعلوم الاجتماعية . ونحن على وجه الدقة ، انا نقصد من ملاحظاتنا الاعتراض على هذا السؤال .

ونحن على حق عند ما نصف المفهوم الذي تعتقده ، مفهوم العرق في تاريخ الايديولوجيات بأنه قديم . فهذا المفهوم ليس الا شكلاً من اشكال النظرية التي كانت واسعة الانتشار في القرن الماضي ، تلك النظرية التي تعلم سير التاريخ بخصائص الطبيعة الانسانية . أما المفهوم المادي للتاريخ فلا يتفق تماماً مع هذه النظرية . ان نعمط التفكير الجديد برى ان طبيعة الانسان الاجتماعي تتبدل مع العلاقات الاجتماعية . وبالتالي ، فالخصائص العامة للطبيعة الانسانية ليس بإمكانها تفسير التاريخ . ان لا بريولا ، الذي يناصر بقناعة وحرارة المفهوم المادي للتاريخ ، يقبل مع ذلك بان المفهوم القديم صحيح هو أيضاً الى درجة ما . ولكن الالان يقولون بحق : « من يقول أني يجب ان يقول بـ أيضاً » . ولا بريولا الذي قبل بصحة المفهوم القديم في حالة واحدة ، اضطر الى قبول صحته في بعض حالات أخرى . فهل من حاجة للقول بان جم هذين المفهومين المترارضين كان لا بد من ان تتحقق الى تلائم نظريته ؟

الخطأ والمبرر

ان تنظم كل مجتمع تحدده حالة القوى المتنبجة . و اذا تبدلت هذه الحالة ، فالتنظيم الاجتماعي يتبدل حتى عاجلا او آجلا . فهو اذن في توازن متقلقل غير ثابت حينما تتطور القوى المتنبجة . ويلاحظ لا بريولا الحق ان هذا التقليل نفسه والحركات الاجتماعية ونضال الطبقات الاجتماعية الناجمة عنه هي التي تحمي البشر من الركود الفكري ؟ ويقول ان التنافي هو السبب الرئيسي للتقدم ، مرددا بذلك فكرة علم اقتصادي الماني معروف ^(١) : ولكنه سرعان ما يدي تحفظا . فلن تخيل ان البشر يمكنون دائماً وفي جميع الاحوال وعيَا واضحاً لوضعيتهم الخاصة ويرون بخلاف المهن الاجتماعية التي يطرحها عليهم هذا الوضع ، يرتكب ، على حد قول لا بريولا ، خطأ فادحا . هذا التصور يعني افتراض ما هو بعيد عن المقول ، بل ما هو غير موجود » .

انا نرجو القاريء ان ينظر باهتمام الى هذا التحفظ . اليكم كيف يعرض لا بريولا فكره :

« ان الاشكال الحقوقية والاعمال السياسية ومحاولات التنظيم الاجتماعي كانت ولا تزال دثاره صحيحة وتارة خاطئة أي غير مناسبة وغير صالحة . فالتأريخ مليء بالاخطاوه . وإن كان كل شيء ضروريأً لفهم النسي لدى الدين كان يقع عليهم حل صعوبة »

^(١) المقصود كارول ماركس . راجع هذا الكتاب ص ٥٩ . - المترجم

او مسألة ما الخ .. ، ولن كان لكل شيء سببه الكافي ، الا ان كل شيء لم يكن مقولاً بالمعنى الذي يملئه المتفاوضون على هذه الكلمة . وعلى مر الأيام ، ان الأسباب التي قررت سائر التبدلات الفجائية ، أي الشروط الاقتصادية للمملكة ، قد انتهت وهي تنتهي الى الاشكال المخوقبة المواجهة والأنظمة السياسية الملاعة واساليب التكيف الاجتماعي البالغة حداً مامن الكمال ، وذلك بطرق قد تكون احياناً ملتوية . ولكن من الخطأ الاعتقاد ان الحكمة الفريدة في الحيوان المافق قد تجلت او هي تجلى ، بصورة مباشرة وبسيطة ، في الفهم الشام والواضح لسائر الحالات ، وانه لا يقتى لنا إلا ان نسلك الطريق الاستنتاجي من الحالة الاقتصادية الى سائر الامور الأخرى . ان الجهل الذي يمكن تفسيره ايضاً هو سبب ذو شأن لاسبيل الذي سلكه التاريخ ؛ ونضيف الى الجهل الطاغي البيهي الذي لا يزول تماماً في يوم من الأيام ، وسائر الاهواء واعمال الظلم ومخالف اشكال الفساد ، التي كانت ولا تزال التاج الضروري ل المجتمع يفترض تنظيمه وجود سيطرة الانسان على الانسان ، كما يفترض وجود الكذب والرياء والجبن والوقاحة التي لا تفصل عن هذه السينطراة . ويعكتنا ، دون الواقع في الاحلام الخيالية .. ، ان تتبنا ، كما تتبنا فعلاً ، بقيام المجتمع ينشأ من المجتمع الحالي ومن متناقضاته ليصل ، بفضل القوانيين الثابتة للصيرورة التاريخية الى اجتماع لاتشوبه التنافيات الطبقية . ولكن هؤلاً من حيز المستقبل وليس من حيز الحاضر او الماضي . وينجم عنه ان الاتجاح المنظم سوف يستبعد الصدفة من الحياة . تلك الصدفة التي تظهر حتى الان في التاريخ كسبب متعدد

الأشكال للحوادث المارضة» (اظهر كتاب لا بريولا ص ١٨٣ - ١٨٥)

هذا الكلام يتضمن حقائق كثيرة . ولكن الحقيقة التي تختلط فيه اختلاطاً غريباً بالطبعاً تحد هنا شكل تناقض غريب مؤسف .

أجل ، إن لا بريولا مصيب في قوله إن البشر لا يدركون رائعاً بوضوح وصفهم الاجتماعي والمهات الاجتماعية التي تتبع منه . ولكن هذه عندما ينطلق من هذه الحقيقة ليقرر أن الجهل والخرافة سبب تاريحي لظهور عدّد من المآدات ومن أشكال الحياة الاجتماعية ، فهو يسود بصورة لا شعورية إلى وجهة نظر رجال الموسوعة في القرن الثامن عشر . وقبل أن نشير إلى الجهل كأحد الأسباب الرئيسية التي تطل « كون التاريخ قد اتبع هذا السبيل ولم يتبع سبيلاً آخر » ، كان علينا ان نحدد المني الذي يجب ان نعطي لهذه الكلمة ، فهذه الكلمة ليست مفهوماً بحد ذاتها وليس على ما يبني من الوضوح والبساطة . انظروا الى فرنسا في القرن الثامن عشر . ان جميع من يفكرون بين مثل الطبقة الثالثة يتطلعون بمحارة الى الحرية والمساواة . لذلك ، فهم يطالبون بالثاء عدد كبير من المؤسسات الاجتماعية البالية . ولكن ذلك يعني اعتقاد الرأسمالية التي لا يمكن اعتبارها حكم الحرية والمساواة (ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة جيداً) . فبوسعنا ان نقول ان فلاسفة القرن الماضي لم يبلغوا المدى التسلل الجريء الذي عملوا لأجله ، كما فشلوا في تجديد الوسائل الكافية بتحقيقه . ويمكنا اذن انهم بـ الجهل ، كما فعل كثير من الاشتراكيين المخاليقين . إن لا بريولا نفسه يستغرب الشاقض الذي كان قائماً بين الاتجاه الاقتصادي الواقعي في فرنسا آنذاك وبين المثل الاعلى لمفكريها ، فيصبح : « بالشهد الغريب ، بالتناقض المدهش ! ». ولكن ابن وجہ القرابة ؟ وain « جهل » ، رجال الموسوعة الفرنسيين ؟ هل في انهم كانوا يفهمون وسائل تحقيق الرفاه العام ، خلافاً لما تذهب بها نحن ؟ ولكن هل كانت هذه الرسائل

في متناول الناس كلا ، لأن الحركة التاريخية ، او بالأصح ، تطور القوى المنتجة لم يكن قد أوجدها بعد . اقرؤوا كتاب مايل «شكوك معروضة على الفلسفة الاقتصادية» ، او كتاب موريلي «سنة الطبيعة»^(١) سوف ترون ان هذين الكاتبين اللذين كانوا على خلاف مع الأغلبية الساحقة من رجال الموسوعة حول شروط رفاه الإنسانية والذين كانوا يحملان بالناء الملكية الخالصة ، كانوا في تناقض واضح صارخ مع حاجات عصرهم الأساسية الملححة وال شاملة . هذا من جهة ، وما كانوا يدركون ذلك . ولو بشكل عامض ، فقد كانوا من جهة ثانية يعتبران الجهل غير قابل للتحقيق بتاتاً . اذن لنطرح السؤال من جديد . اين يمكن جهل رجال الموسوعة ؟ هل في كونهم ، مع وعيهم لاحتاجات عصرهم الاجتماعية ومع تحديدهم الصحيح لوسائل تلبيتها (الناء الامتيازات القيدية الخ .) ، يلقوون على هذه الرسائل أهمية مفرطة بزعمهم انها كفيلة بتحقيق السعادة العامة ؟ ليس في هذا الجهل ما يدفعه الى الاستغراب ، بل علينا الاعتراف بفائدته من الناحية العملية . فبقدر ما كان رجال الموسوعة يؤمنون بالمعنى العام الشامل لاصدارات التي ينادون بها ، كان يتحتم عليهم ان يضاعفو الجهد لتحقيقها .

كذلك ، فقد يرهن رجال الموسوعة عن جهل أكيد في عدم ادراكهم لصلة التي تربط بين أفكارهم ومطاعهم وبين الوضع الاقتصادي في فرنسا آنذاك . بل ان وجود هذه الصلة لم يكن ليخطر ببالهم ، لقى كانوا يعتبرون انفسهم البشرين بالحقيقة المطلقة . وتخمن نعلم اليوم ان الحقيقة المطلقة غير موجودة ، وان كل شيء نسي وتتابع لفروف المكان والزمان ، ولذلك يجب ان تكون شدمي الاحتراض الذي التحدث عن «جهل» مختلف المهد التاريخية . ان هذا الجهل الذي يظهر في الحركات والمطامح والمثل العليا الخالصة بهذه المهد هو ايضاً نسي .

١ - مايل وموريلي : من مثل الشيوعية الخيالية في القرن العاشر . - المترجم -

المفهوم والمعنى

كيف تظهر القواعد المخوقة ؟ يمكن القول ان كل منها تتجزء عن محو او تسديل قاعدة قديمة او عرف قديم . ولماذا تزول القوى والاعراف القديمة ؟ لأنها لم تتم توافق «الشروط» الجديدة ، اي العلاقات الجديدة في الواقع بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية . لقد زالت المشاعية الابتدائية على اثر تطور القوى المنتجة ولكن هذه القوى لا تتطور الا تجريحاً . ولهذا السبب ، فالعلاقات الجديدة التي تهوم في الواقع بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعي لا تتطور الا تجريحاً كما أن القواعد والاعراف القديمة لا تظهر كعقبات الا بصورة تجريحية . وبالتالي فان ضرورة اعطاء العلاقات الواقعية الجديدة (العلاقات الاقتصادية) تبريراً حقوقياً مطابقاً كل الطابق لا تظهر هي ايضاً الا بصورة تجريحية . ودين الحكمة الفرزية عند الحيوان العاقل تتبع عادة هذه التغيرات الواقعية . و اذا كانت القواعد المخوقة القديمة تمنع قسا من المجتمع من بلوغ اهدافه الحيوانية وتلبية حاجاته الاساسية ، فان هذا القسم سيدرك بحكم الضرورة وبسهولة كبيرة انها تشكل عقبة . إن وعي هذا الامر ليس أصعب بكثير من وعي صعوبة ارتداء حزاء ضيق او حمل سلاح ثقيل الا لدن المسافة كبيرة بين ادراك الانسان الكون قاعدة من القواعد المخوقة تشكل عقبة وبين الواقع الواثي الى الغاء هذه القاعدة . بادىء الامر ، يحاولن

الناس أن يحتلوا عليها في كل حالة على حده . تذكروا ماذا حدث في روسيا ، في عادات الفلاحين العديدة الأفراد ، عندما أدى نشوء الرأسمالية إلى ظهور مصادر جديدة للرزق ، لم تكن متساوية لختلف أفراد الأسرة . لقد غدت آنذاك الحقوق المائية المرعية الاجراء ثقيلة الوطأة بالنسبة إلى السعداء الذين كانوا يكسبون أكثر من الآخرين . ولكلهم يرسموا على مناهضة الرف القديم فوراً وبسهولة بل اكتفوا لفترة طويلة بالاحتيال عليه ، خافين جزءاً من مكاسبهم عن رب الأسرة ولكن النظام الاقتصادي الجديد أخذ ينسو ، والنظام المائي المهرم أخذ يتزعزع شيئاً فشيئاً ، شرع أفراد الأسرة الذين كان بهم النساء هذا الرف يرثون درآسمهم على نحو متزايد ؛ بينما تكاثرت اجراءات التوزيع . وفي الأخير ، زال الرف القديم وحل محله عزف جديد . تولد من الشروط الجديدة أي من العلاقات الواقعية الجديدة أو الاقتصاد الاجتماعي الجديد ،

عادة يكون وعي الناس لوضعيتهم متأخراً إلى حد ما عن العلاقات الواقعية الجديدة التي تكيف هذا الوضع وتعدله . إلا أن الوعي يتبع مع ذلك العلاقات الواقعية وإذا كان طموح البشر الوعي إلى إثناء المؤسسات القديمة وإقامة نظام حقوقي جديد لا يزال ضعيفاً ، فذلك لأن اقتصاد المجتمع لم يهدى ، بشكل كاف هذا النظام الجديد . ويتغير آخر ، خلال التاريخ ، إن النقص في وضوح الوعي - «غلطات فتاك» لم يبلغ حداً كافياً من التضييق «وـ «المجل» ، لا يعني في أحيان كثيرة سوى شيء واحد هو ما يجب ادراكه أي العلاقات الجديدة الاخذة في التكون - لم يتم بعد بصورة كاملة . وإن جهلاً من هذا النوع (جهل وعدم فهم ما لم تكتمل وجوده ، بما هو آخذ في التكون فقط) ليس إلا جهلاً نسبياً .

وهنالك نوع آخر من الجهل : الجهل إزاء الطبيعة ؛ ويعُكِن تسييه جهلاً مطلقاً ، وفياسه سيطرة الطبيعة على الإنسان . وبما أن نمو القوى المتوجه يعني ازدياد سطوة الإنسان على الطبيعة ، فإن تزايد القوى المتوجه يسبب بالطبع تناقضاً في الجهل المطلق . إن ظواهر الطبيعة التي لا يفهمها البشر والتي تخرب عن نطاق سلطتهم ، تولد مشتى المخارات في مرحلة معينة من التطور الاجتماعي ، وتحتل هذه المخارات اختلاطاً وثيقاً بالفاهيم الأخلاقية والحقوقية ، فتطبّعها بلون خاص^(١) . وخلال الصراع الناجم عن نمو العلاقات الواقعية بين الناس في عملية الاتّاج الاجتماعية ، كثيراً ما يلعب الدين دوراً بارزاً . إن المجددين والمحافظين يستجدون بالآلة ، ويضعون تحت رعايتهم هذه المؤسسة أو تلك ، بل يملئون أن هذه المؤسسات هي التعبير عن إرادة إلهية ، ومنهوم أن الاوينيد Euménides الوايكي كان يعتبرهن الأغرق في الماضي كطارسات لشروع نظام الامرمة لم يساعدن

١) يقول كوفاليفسكي – وهو مؤرخ روسي ، يؤيد نظرية «المواعِل» معتبراً أن المامل الرئيسي هو ازداد السكان – في كتابه «القانون والعرف في الفراس» : «أن فحص المعتقدات والمغارات الدينية عند الشافع يدفعنا إلى الاعتقاد أن هذا الشعب تحت ستار الإوثوذكية الرسمية ، لا يزال حتى الان ، في مرحلة التطور التي سماها تايلور «التفكير الاحيائني» . وهذه المرحلة كما هو معلوم يراقبها عادة خضوع الأخلاق الاجتماعية والحقوق خضوعاً تاماً إلى الدين » (الجزء الثاني من ٨٢). والحال ، ليس التفكير الاحيائني البدائي ، حسب تايلور ، أي تأثير على الأخلاق والحقوق . في تلك المرحلة من التطور ، ليس هناك علاقة بين الأخلاق والدين ، أو انعدام العلاقة تبقى في حالة جينية ». «ان العقليّة الاحيائية عند القبائل المحبجة خالية بصورة تكاد تكون تامة من ذلك التصرّف الأخلاقي الذي يشكل في نظر الانسان المتقد جوهر كل دين على ... ان القوانين الأخلاقية ارضها الخاصة» (تايلور «الحضارة البدائية» ، لندن ١٨٧١ ، الجزء الثاني ، من ٣٦٦) . فن الاصبع القول ان المخارات الدينية لا تختلط بالفاهيم الأخلاقية والحقوقية الا في مرحلة عالية نسبياً من التطور الاجتماعي . ويوسفنا كثيراً ان شيك المجال لا يسمح لنا بان نبين كيف تعلل المادية الحديثة هذه الظاهرة . – المؤلف

في شيء على بقائه ، كما لم تساعد ميرفاجن Minerve في شيء على تحقيق اقصار السلطة الابوية التي كانت تعتبر المدافعة عن قضيتها؛ لقد كان الناس يضيئون جدهم ووقيهم مما في دعائهم للآلهة والآوثان . ولكن الجهل الذي كان يجعلهم يؤمنون بالاوبيين لم يكن لمنع المحافظين الاغريق من ادراك الواقع وهو ان النظام الحقوقى القديم (أو بالاصح الحقوقى المرففة القديمة) يضمن مصالحهم على نحو أفضل من أي نظام آخر كان انحرافات والأمال المعقودة على ميرفاجن تكن لمنع المجددين من ادراك مساواة نظام الاشياء القديمة .

ان الدليل في جزيرة بويرنيو لم يتسادوا على قطع الحطب فرضاً تأخذ شكل جرف ٧ . ولا أدخل الاوريون هنا التجديد ، قامت السلطات المحلية بتحريمه شرعاً . (انظر تايلور : المفارقة البدائية ، باريس ١٨٧٦ ، الجزء الاول ص ٤٢) . وهذا دليل واضح على جهله . فهل يعقل أن يحرم اسلوب يسهل العمل ؟ ومع ذلك لنفكر بهذا الاجراء علينا نجد له ظروفاً مخففة . ان حظر استخدام اساليب العمل الاوريية كان بلا شك احد مظاهر التضال ضد النزؤ الاوري الذي كان آخذًا في توسيع نظام الاشياء الموجزة . لقد كانت السلطات المحلية تشعر شعوراً عامضاً ، بأنه سوف لن يبقى من هبّذا الطفلكم چجر على حجر إذا ما أدخلت النساء الاوريية . ولسبب نجاحه ، كانت هذه المادة وجهاً خاصاً تذكرها بطبيعة التقوذ . الاوري في المدام ، فحرما شرعاً . وللادا بالضبط كانت الفرضة المذكورة رمزاً للتجديفات الخطرة في نظرهم ؛ ليس بوسمعنا ان نحيب على ذلك جواباً مرضياً . فتحزن مجده السبب الذي جعل الفرضة المذكورة ترتبط في ذهن اهل البلاد بفكرة الخطط الذي كان يهدى نظام الاشياء القائمة وكل ما يسمى تأكيده ، هو أن خاوف اهل البلاد كانت سبباً تماماً . فالنزو الاوري يشوه بسرعة وقوة اعراض

القبائل المضجعة والمبرأة ، ومحظتها أحياناً .

يقول تايلور ان الدياك كانوا مع شعبهم لطريقة البيض ، يستخدمون هذه الطريقة خمسة حين يستطيعون . ها هو «الرقاء» بيته يضاف الى الجهل . ولكن الناسو مسيب ذلك كله وبالطبع ، لأن اهل البلاد الذين كانوا يدركون فوائد الطريقة الجديدة فيقطع الخطب كانوا يخشونرأي العام وعقاب السلطات . فالحكمة الفرزية عند الحيوان المافق كانت تندد الاجراء الذي كانت وحدها مسؤولة عنه . وكانت صفة في انتقادها . فتجريم استخدام الطرق الاوربية يمكن كفلاً بمحو التفوذ الاوربي واحتقاره .

اذا استخدمنا عباره لا بريولا ، يمكننا القول بهذا الشأن ان الدياك قد انددوا اجراء غير مناسب وغير صالح . ونكون محقين في هذا القول : ويمكننا أن نضيف الى ملاحظة بريولا ، ان البشر كثيراً ما يتخذون مثل هذه الاجرامات غير المناسبة وغير الصالحة ، ولكن ماذا يجب علينا ان نستنتج فقط انه يجب علينا ان تتحرى ما اذا كان لا توجد علاقة بين مثل هذه الاعطاء من جهة ، وبين طابع العلاقات الاجتماعية او درجة تطورها من جهة ثانية . هذه العلاقة موجودة بلا ادنى ريب . ويقول لا بريولا ان الجهل يمكن تفسيره ايضاً . ونحن نقول ان تفسيره ليس مكتنا فقط ، بل هو ضروري ايضاً ، هذا اذا كان علم الاجتماع قابلاً لان يصبح علماً دقيقاً . واذا كان من الممكن تفسير «الجهل» باسبابه الاجتماعية ، فلا جدوى من التجوه اليه ، ولا فائدة من القول انه يصل كون التاريخ قد اتباع هذا الطريق وليس طريقاً آخر . ليس الجهل على ذلك ، انما الاسباب الاجتماعية

التي ولدت هنا الجهل واعطته مظاهرًا أو طابعًا معيناً. ولماذا تقتصر وثـ ، والحملة هذه ، على الاستبعاد بالجملـ الذي لا يفسـ شيئاً ؟ فينظر المفهـوم العـ لمـيـ التاريخـ انـ الباحـثـ الذي يستبعـدـ بالجملـ اغاـ يـدلـ بـذلكـ عـلىـ جـهمـهـ بالـذـاتـ .

«المرمنية». التقاليد.

كل قاعدة حقوقية وضدية تدافع عن مصلحة مميتة . من أين تأتي المصالح ؟ هل هي نتاج الإرادة والوعي الانساني ؟ كلاماً منها تصادر عن العلاقات الاقتصادية بين الناس . ومتى وجدت هذه المصالح ، فإنها تتعكس بشكل أو آخر في وعي الناس ، ذلك لانه لا بد للإنسان من ان يعي مصلحة مميتة كي يدافع عنها . وبالتالي ، يمكن و يجب اعتبار كل نظام حقوقى و ضدى كحتاج الوعي^(١) ليس وعي الناس هو الذي يخلق المصالح التي تدافع عنها القوانين . وبالتالي فهو لا يحدد محتوى القوانين . ولكن حالة الوعي الاجتماعي (السيكولوجيا الاجتماعية) هي التي تحدد

(١) « ليست الحقوق ، كالقوى الطبيعية ، شيئاً موجوداً بصورة مستقلة عن نشاط الإنسان ... بل بالعكس ، أنها قاعدة يقيمها البشر والبشر . وليس ذا شأن كبير ، في هذا المضمار ، أن يكون الإنسان في نشاطه خاصاً لقانون السبيبة أو أن تكون افعاله حرة كيفية . فبشكل أو آخر ، يحكم قانون السبيبة او قانون الحرية . يتشكل القانون المفوق ليس خارج نشاط الإنسان ، بل يفضل هذا النشاط فحسب وعن طريقه . » (كوركوفوف : خواصات عن نظرية المفوق العامة ، بطرسبurg ، من ٢٧٩) . هنا صحيح تماماً ، ولكنه مبالغ يشكل سوء . ولكن السيد كوركوفوف نسي أن يضيف أن المصالح التي تتفاقع عنها الحقوق لم يخلوها البشر البشر ؛ بل تقررها العلاقات التي تقوم بين الناس في عملية الاتصال الاجتماعي . - المؤلف -

كل عهد من العهد ، الشكل الذي يتخذه في دماغ البشر انعكاس هذه المصلحة او تلك . وإذا لم تأخذ حالة الوعي الاجتماعي بين الاعتبار يكون من الحال تسخير تاريخ الحقوق .

في هذا التاريخ ، ينبغي دائمًا أن نميز بين بين الشكل والمضون . وفيما يتعلق بالشكل ، تخضع الحقوق ككل أيديولوجية لتأثير الأيديولوجيات الأخرى ، أو على الأقل ، لتأثير قسم منها : المعتقدات الدينية ، المفاهيم الفلسفية الخ . وهذا التأثير يجعل من الصعب واحياناً من الصعب جدًا — ادراك العلاقة الموجودة بين مفاهيم الناس الحقوقية وعلاقتهم في عملية الانتاج الاجتماعية . ولكن هذا ليس الا نصف — مصيبة^(١) . أما المسؤولية الحقيقة فهي أن كل أيديولوجية تخضع لتأثير الأيديولوجيات الأخرى بصورة شديدة التناول في مواجهة التطور الاجتماعي المختلفة هكذا في مصر القديمة وجزئياً في روما ، كانت الحقوق تخضع للدين . وفي الازمنة الحديثة خضم تطور الحقوق (من حيث شكلها) يجب أن نذكر ذلك وإن ذكره جيداً إلى تأثير الفلسفة اليائنة القوية . وقد توجب على الفلسفة ، في سبيل ابعاد الدين عن الحقوق وإداله منفوذها ، أن تخوض نضالاً مستمراً . ولم يكن هذا النضال إلا انعكاساً أيديولوجيَاً لنضال الطبقة الثالثة الاجتماعي ضد الأكليروس . غير أنه كان عقبة كبيرة تحول دون

١) ولكنه يلحق ضرراً كبيراً بممؤلفات مثل كتاب كوفاليفسكي « القانون والعرف في القواسم » . كثيرة ما يعتبر مؤلف الحقوق ناتجاً للأفكار الدينية . كان يجلس به ان يتبع في بيته سبلاً آخر ، فينظر إلى المعتقدات الدينية والمؤسسات الحقوقية متى شرحب القواسم على أنها ناتج علاقاتهم الاجتماعية في عملية الانتاج ، وبعد تبيان تأثير أيديولوجية على أخرى ، يصرح السبب التي وحده يفسر هنا التأثير : لقد كان على السيد كوفاليفسكي أن يشك هنا الطريق لا سيما وأنه يؤكد في مؤلفات أخرى وجود علاقة السبب بالنتيجة بين أساليب الانتاج والقواعد الحقوقية . بـ المؤلف .

صياغة افكار سديدة عن أصل المؤسسات الحقوقية ومتى ؟ فقد كانت هذه المؤسسات ، من جراء هذا الصراع ، تبدو بشكل بدهي واضح كأنها نتاج صراع بين مفاهيم مترادفة ، ومن ثالثة القول ان لا بريولا بشكل عام يفهم تماماً ماهي العلاقات الاعنية التي تحيي ، وراء هذا الصراع بين المفاهيم ، ولكنه في بعض الاحوال الخاصة ، يستسلم لا بريولا المادي لصعوبة المعضلة ، ويستعدونا الاقصر على الاستنجاد بالبلبل او بقوة التقليد ، كرأينا سابقاً . وفضلاً عن ذلك ، فهو يعتبر « الرمزية » السبب الاخير الذي يفسر عدداً كبيراً من الاعراف ...

احل ، إن الرمزية « عامل » لا يمكن اهماله في تاريخ بعض الایديولوجيات . ولكن لا يجوز اعتباره السبب الاخير لبعض الاعراف . اليمك مثلاً على ذلك معتقد البشاف ، وم من قبائل التوques ، تقص المرأة ضغيرتها عندما يوت آخرها ، وليس عندما يوت زوجها . إن قص الصفيرة في هذه الحال هو فعل رمزي ينوب عن حرف أكثر قدماً كان يفرض على المرأة ان تتحرر على قبر الميت . ولكن ماذا هي تتحرر على قبر الاخ لا على قبر الزوج ؟ يقول السيد كوفاليفسكي :

« لا بد ان ترى في ذلك بقية من العهد القديم . حين كان القريب الاكبر سننا من جهة الام رئيس الجماعة التي يوحدها انتقامها الحقيقي او الوهمي الى جد واحد » (القانون والمرف في التوques) .

نفهم عن ذلك ان الافعال الرمزية لا يمكن فهمها الا عندما تدرك مني واصل العلاقات الى ترمذ لها . ومن اين تأتي هذه العلاقات ؟ من البدهي أن تأسف لا تجد الجواب على هذا السؤال في هذه الافعال الرمزية نفسها ، رغم أنها تستطيع أحياناً ان تعطي بعض الدلائل المفيدة . إن اصل المرف الرمزي المذكور الذي يتعضي يقص الصفيرة على قبر الاخ يفسر بتاريخ المائة ، هذا التاريخ الذي يفسر

بدوره بتاريخ التطور الاقتصادي .

والحال ، لقد استمر هذا الطقس بعد زوال اشكال علاقات القربى التي ينبع منها . وفي ذلك مثل عن تأثير التقاليد الذى يشير اليه لا بريولا في كتابه ، ولكن التقاليد ليس بوسها ان تحفظ الاما هو موجود . وهي لا تفسر اصل طقس من الطقوس او شكل من الاشكال ولا تفسر مقاومه . إن قوة التقاليد قوة عطالة . وفي تاريخ الایديولوجيات ، كثيرا ما يضطر الباحث الى التساؤل عن سبب مقاوم طقس او عرق ما على الرغم من المفاضلات الملافات التي ولدته ، ونزوال اعراف وطقوس اخرى مائة تولدت من نفس العلاقات . وهذا يعود الى التساؤل عن سبب كون اثر العلاقات الجديدة المدحى قد وفر هذا الطقس او العرف ، في حين انه قضى على غيره . والاجابة على هذا السؤال بالالتجاء الى قوة التقاليد يعني الاصدار على تزداد السؤال بشكل جواب . ولكن ما العمل في هذه الحال ؟ التوجه شطر السيسكولوجيا الاجتماعية .

إن الاعراف القديمة يزول والطقوس القديمة تخفي عندما تهدم علاقات جديدة بين الناس . ويترجم بذلك الاعراف والطقوس الجديدة ضد القديمة عن صراع المصالح الاجتماعية ، ليس من عرف او طقس رمزي مأخوذ في ذاته يستطيع التأثير على تطور العلاقات الجديدة ، في اتجاه موجب او سالب . واذا كان المحافظون يدافعون بحرارة عن الاعراف القديمة فذلك لأن النظام الاجتماعي الذي يناسفهم ويعز عليهم وبالغونه يتصل في ذهنهم اتصالاً وثيقاً بهذه الاعراف . وواذا كان الجددون يغضبون هذه الاعراف ويسخرون منها ، فذلك لأنها تتصل في ذهنهم بالعلاقات الاجتماعية التي تضايقهم وتزعجهم وتضر بعصابتهم . فالقضية هنا ليست إلا قضية ارتباط بين الافكار . عندما ترى ان طقساً ما قد استمر بعد اتضارع العلاقات التي ولدته بل وبعد زوال الطقوس المتصلة به والتي تولدت من نفس العادات ، يجب أن تستخرج ان هذا الطقس لم يكن يرتبط في ذهن الجددين .

بماضي البعض ، ينفي قوة ارتباط الطقوس الأخرى به . وماذا لم يكن يرتبط بهذه القوة ؟ قد يسهل الجواب على هذا السؤال في بعض الأحيان ، وقد يستحيل في أحيان أخرى ، نظراً لفقدان المطبات السيميولوجية الكافية . ولكن حتى في هذه الأحيان ، بالنظر إلى طبيعة الجواب ، في الحالة الراهنة لمعرفنا على الأقل ، ينبغي أن تذكر شيئاً أن المشكلة ليست هنا قوة التقليد ، بل بعض الارتباطات الفكرية النابعة من العلاقات الواقعية بين الناس في المجتمع .

إن تاريخ الأيديولوجيات يطل إلى حد بعيد بتكونه وتبدل وزوال ارتباطات الأفكار ، تحت تأثير تكونه وتبدل وزوال بعض ترتيبات القوى الاجتماعية . إن لا يربو لا لم يربو على هذا الجانب من المسألة الانتهاء الذي يستحقه . وهذا يتلخص جيداً من مفهومه الفلسفية .

الفلسفة

يرى لا بريولا ان الفلسفة في تطورها التاريخي تتعادل جزئياً مع اللاهوت ، وترجم جزئياً عن تطور الفكر الانساني في صلته مع الاشياء التي تدخل في حقل تجربتنا . وهي بقدر ما تتميز عن اللاهوت ، تتناول مسائل يسعى الى حلها البحث العلمي بالمعنى الاصلي . وفي عمليها هذا ، فهي إما ان تناول استباق العلم بتقديم حلولها التخيينية الخاصة او ان تتناول الحلول التي اكتشفها العلم ، فتلخصها وتحصّنها لصياغة منطقية . هذا صحيح بالطبع ، ولكنه ليس كل الحقيقة .

لأنأخذ الفلسفة الحديثة مثلاً . بالنسبة الى ديكارت وبيكون^(١) ، كانت

مهمة الفلسفة الاولى مضايقة المعرف التي تقدمها العلوم الطبيعية ، وذلك لزيادة سلطة الانسان على الطبيعة ، ففي عصرهما كانت الفلسفة اذن تعالج مسائل هي موضوع علوم الطبيعة . غير ان هذا التصور ليس صحيحاً تماماً الصحيحه . فحالة العلوم الطبيعية في عصر ديكارت لا تفسر موقفه في بعض المسائل الفلسفية كمسألة

١ - ديكارت : من كبار الفلسفه والعلماء الفرنسيين ، في الصحف الاول من القرن السابع عشر ، مؤسس المنهضة البهيلية ، واصنع كتاب « رسالة في المنجز » حيث يوضح طريقة العلوم

بيكون : من كبار الفلسفه الانكليز . في مطلع القرن السابع عشر ، صاح قواعد الطريقة التجريبية - الاستقرائية .

الروح مثلاً، لكن هذا الموقف يفسر تماماً بالوضع الاجتماعي الذي كان يسود فرنسا في عصره. فديكارات يحصل بعثته الشدة ميدان لايان عن ميدان العقل. وظفته لا تعارض الكاثوليكية ، بل على أتمكش ، هي تسعى لامتداد بعض عقائدها إلى حجج جديدة ، وهي في ذلك تعبّر تغييرًا جيداً عن حالة الفرنسيين الذهنية آنذاك فبعد الاضطرابات الطويلة الدامية التي حصلت في القرن السادس عشر ، كانت فرنسا تتوجه إلى اسلم والنظام . و كان هذا الطموح يتجلّ في الميدان السياسي بيمهلا إلى الملكية المطلقة، وفي ميدان الفكر بعض التسامح الديني وبالرغبة في تجنب المشكلات التي كانت تذكر بالحسب الاهليه الحديثه المهد؟ وقد كانت المسائل الدينية في عداد هذه المشكلات ، وتؤخّياً لعدم من هذه المسائل ، كان يبني فصل وتحديث كل من ميداني الايان والعقل . وهذا ما فعله ديكارت ، كما قلنا سابقاً . ولكن ذلك لم يكن كافياً . فقد كان يبني ، لصالحة السلام الاجتماعي ، أن تعلن الفلسفة اعتراضاً الصريح بحقيقة القائد الدينية . وهذا أيضاً ما فعله ديكارت . ولهذا السبب قد لاقى مذهبة الذي كان مذهبها مادياً في ثلاثة أرباعه على الأقل استقبالاً حسناً من قبل كثير من رجال الكنيسة .

ان مادية لاموري تتبع بصورة منطقية من فلسفة ديكارت ولكنها كان يمكن أيضاً استخلاص استنتاجات مثالية من هذه الفلسفة . وارت لم يفعل الفرنسيون ذلك ، فرد الامر الى سبب اجتماعي معين هو عداء الطبقة الثالثة لاكليرicos في فرنسا في القرن الثامن عشر : واثن نشأت فلسفة ديكارت من الميل الى السلم الاجتماعي ، فقد كانت مادية القرن الثامن عشر تذر بهزات اجتماعية جديدة . نرى من ذلك ان تطور الفكر الفلسفي في فرنسا لا يمثل فقط بتطور علوم الطبيعة ، بل ايضاً بما تطور العلاقات الاجتماعية من تأثير مباشر ، وهذا

يظهر على نحو افضل إذا فحصناه باقباه تاريخ الفلسفة الفرنسية من وجهة نظر أخرى .

اننا نعلم ان المهمة الاساسية للفلسفة كانت بالنسبة لديكارت زيادة سلطة الانسان على الطبيعة . بينما تعتبر المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ان واجها الاول هو ابدال بعض المفاهيم القديمة بعفاهم جديدة تكون اساساً لقيام العلاقات الاجتماعية الطبيعية . فالماديون الفرنسيون يكادون لا يهتمون ابداً بقضية زيادة قوى المجتمع المتحجج . ان الفرق ل الكبير ، فما هو مصدره ؟

في القرن الثامن عشر ، كان تطور القوى المتحجج في فرنسا يصطدم بعقبة مبنية هي علاقات الانتاج الاجتماعية البالية ، والمؤسسات الاجتماعية المتقدمة . لقد كان الناء هذه المؤسسات ضرورياً تماماً لتطور القوى المتحجج ، ولم تكن الحركة الاجتماعية في فرنسا آنذاك تغنى شيئاً آخر . وفي الفلسفة ، كانت ضرورة هذا الانتاج تتجل في النضال ضد المفاهيم الجردة المهرمة ، التي نشأت على اساس علاقات انتاج هرمة هي أيضاً .

أما في عصر ديكارت ، فهذه العلاقات لم تكن بالية على الاعمال ، ولم تسكن لتعيق نمو القوى المتحجج ، بل كانت تساعدها كما كانت تساعد ايضاً المؤسسات الاجتماعية التي تولدت منها . ولهذا السبب لم يكن هناك من يشكك بازالتها ، بل كانت الفلسفة ترسم لنفسها مهمة مباشرة هي زيادة القوى المتحجج وهي المهمة العملية لل المجتمع الاساسية البرجواري الآخذ في النشوء

★ ★ ★

ذلك هي اعتراضاتنا على لا بريولا . ولكن لمها غير ضرورية . ربما لم يقصد لا بريولا سوى الوضوح ، ولله متلق معنا من حيث الجوهر ، ذلك سيسعدنا . فما

يس له الإنسان أن يلاحظ أن رجالاً أذكياء متقوون منه على نفس الرأي .
وala سؤلنا ان نكرر ان هذا الرجل الذي قد اخطأ . وفي قولنا هذا ،
لعلنا قدم مرة أخرى للذاتين المترفين الصغار^(١) موضوعاً ليخرروا منه ويردوا
انه من الصعب حقاً التميز بين الانصار الحقيقيين للغثوم المادي للتاريخ ومن ليسوا
أنصاراً حقيقين له . ولكتنا سنجيبهم « انهم يهزرون من انفسهم » فكل من ادرك
جوهر مذهب من المذاهب الفلسفية لا يصعب عليه ان يفرق بين اتباعه الصادقين
والكاذبين . ولو كلف السادة الذائبون انقسم عناء التفكير قليلاً في مدلول التفسير
المادي للتاريخ لادر كانوا عاماً من هم « الاتباع الحقيقيون » ومن هم الذين يحملون
هذا الاسم العظيم خطأً . ولكن بما انهم لم ولن يكلفو انفسهم هنا العنااء ، فسوف
يظلون دائعاً على حيرة من امرهم . هذا هو تنصيب جميع المتخلصين ، جميع من هجروا
جيش التقدم العامل . وبشأن التقدم ، الا تذكروا ايها القراء . الزمن الذي كان
فيه « الميتافيزيكون » موضع الشتائم^(٢) ، والذي كان يجري فيه تسريس الفلسفة
حسب لوس^(٣) ، وأحياناً حسب « كتاب الحقوق الجزائية » مؤلفه السيد سباسوفيتش
الذي كان فيه قد تخيل للقراء (القداميين) صيغاً بسيطة في متناول الجميع وحتى
الأطفال الصغار ؟

- ١ - التليميدات الواردة في هذه الفقرة يقصد بها ميخائيلوفسكي . - المترجم -
- ٢ - يقصد بليخانوف بالميافيزيتين انصار الفلسفة المادية . فالفلسفة المادية البرجوازية
الميسارة (الوضيعة) ، فلسفة الطواهر ، الوجودية ، فلسفة المatum العارضة ، الفانية ، الرببية . . .
تصيب نفسها « فوق» المادية والماثالية ، وتحمّل الم الدين بالبيافيزية لاحتاجهم بسراسته جوهر
الأشياء وأسباب الحوادث وإنماهم بالقوانين العامة الطبيعية والجمعي . إن بليخانوف يفهمك هنا
على هذه المزاعم والافتراضات - المترجم -
- ٣ - لوس جورج هنري (١٨١٧ - ١٨٧٥) : فيلسوف إنجليزي من المدرسة الوضيعة ،
مؤلف كتابه عن تاريخ الفلسفة - المترجم -

ياللزمن السيد ا قد زال ، لقد تبدد كالدخان . وعادت « الميتافيزياء » من جديد تجذب الاذهان في روسيا لقدرها ووضعها جانياً والجميع يهملون صنع التقدم الدائمة الصيغة . وعلماء الاجتماع اقسموا - بعد ان أصبحوا رجالاً معززين مكرمين نادراً ما يتذكرون هذه الصيغة . وتلاحظ مثلاً ان احداً لم يفكرا بها في الوقت الذي كنا في اشد الحاجة اليها ، على ما يبدو ، أي حين كان يدور عندنا النقاش حول امكانية ترك طريق الرأسمالية لصالح طريق الوهم والخيال . ان الخيالين عندنا كانوا يحملون اسم رجل يدعى انه من انصار المادية الديالكتيكية الحديثة رغم كونه مدافعاً عن فكرة « انتاج شيء » خالي صرف^(١) . هكذا اصبحت المادية الديالكتيكية في ايدي الظاهرين السلاح الوحيد الذي يستحق الانتباه ، لذلك فن المقيد الى ابعد حد ارت نرى كيف ينظر انصار المفهوم المادي للتاريخ الى «التقدم» . صحيح ان صحتنا قد ترخت لهذه القضية مرات عديدة . ولكن المفهوم المادي الحديث للتقدم قليل الوضوح بالنسبة للكثيرين ، هذا اولاً ، وثانياً ان لا يربو لا يسرحه بامثلة انتقاها انتقاء جيداً ويطلبه باعتبارات صافية جداً - بالرغم انه لسوء الحظ يعرضه بصورة منتظمة وفي كل مداولاته باعتبارات ان اعتبارات لا يربو لا تحتاج الى انتقام . ونحن نأمل ان تعمل ذلك متى وجدنا متسماً من الوقت . والآن لننته ، لقد آن الاوان .

قبل ان نضع القلم ، نرجو القاريء مرة أخرى ان يتذكر جيداً ان المادية المنهاة « الاقتصادية » التي يوجه اليها السادة الشعبيون والذاتيون اعتراضاتهم - وهي اعتراضات غير مقبنة على كل حال - لا تمت بصلة كبيرة الى المفهوم المادي

^(١) بليثانوف يقصد الشيء المعروف نيكولاي - اوون (دانيلوون) الذي اتتحل لقب « خاركفي » مجرد اخلاله انه يوالي « نظرية ماركس الـ اقتصادية » .

المحدث للتاريخ . وإذا أخذنا بوجهة نظر الموامل يكون المجتمع الانساني كعباً ثقيلاً لمجتمعه « قوي ، مختلف — الاخلاق ، المعتقد ، الاقتصاد ، الخ ... » — كلّ من يجهزها على طريق التاريخ ولكن اذا اخذنا بوجهة نظر المفهوم المادي للمحدث للتاريخ كل شيء . إن « الموامل » التاريخية تظهر كمبردات بسيطة ، وعندما تبدد مثابتها يصبح واضحًا ان البشر لا يصنعون تواريخ مماثلة : تاريخ المعتقد وتاريخ الاخلاق وتاريخ الفلسفة الخ ... — بل تاريخاً واحداً هو تاريخ علاقاتهم الاجتماعية التي تكفيها في كل وقت حالة القوى المنتجة . وما يسمى ايديولوجيات ليس الا انكلاساً متتنوع الاشكال في دماغ البشر لهذا التاريخ الواحد الذي لا يتغير .

الفهرس

فلسفة التاريخ

٥	١ — المفهوم الالهي للتاريخ
٨	٢ — المفهوم المثالي للتاريخ
١٦	٣ — رد الفعل بعد الثورة الفرنسية
٢٦	٤ — فلسفة التاريخ عند سان سيمون
٢٨	٥ — أوغسطين تيري ومينيه
٣٠	٦ — فلسفة التاريخ عند شيلون
٣٨	٧ — فلسفة التاريخ عند هيبل
٤٢	٨ — المفهوم الماركسي للتاريخ
٤٥	المفهوم المادي للتاريخ
٥٣	

«المادية الاقتصادية»

٥٥	١ — نظرية العوامل
٥٩	٢ — المفهوم العلمي للمجتمع
٦٤	٣ — موضع العلم التاريخي
٦٩	٤ — الاقتصاد . السيسكلوجيا الاجتماعية
٧٣	٥ — نشوء الدولة . مفهوم العرق
٧٦	٦ — مفهوم العرق . مزاج الشعب
٨٠	٧ — الخطا والجليل
٨٣	٨ — الحقوق والدين
٨٧	٩ — «الرمزية» . التقاليد
٩٦	١٠ — الفلسفة
٩٧	

Bibliotheca Alexandrina



0647250

الشمن ١٠ مدرس